مسألة صبغة الله واتباع النبي (ص) وعدم الاعتماد على أعمال السلف

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٣٥ - ١٤١

أما تفسيرها بحسب:

- ابن كثير:

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ البقرة: ١٣٥

عن ابن عباس، قال: قال عبد الله بن صُوريا الأعورُ لرسول الله (ص) : ما الهدى إلاَّ ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله

عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ ﴾ ، وقوله: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ ﴾ أي: لا نريد ما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ ﴾

أي: مستقيماً، وقال مجاهد : الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٦

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد (ص) مفصلاً وبما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلّهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ ﴾النساء: ١٥٠ - ١٥١ .

عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبْرَانيَّة ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله (ص): ((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تُكَذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل الله)) .

وقال أبو العالية وقتادة: (الأسباط) بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً؛ ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسمّوا الأسباط.

وقال الخليل بن أحمد: الأسباط في بني إسرائيل، كالقبائل في بني إسماعيل؛ وقال الزمخشري:الأسباط حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثنى عشر، وقد نقله الرازي عنه، وقرره ولم يعارضه. وقال البخاري: الأسباط: قبائل بني إسرائيل، وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط هاهنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله تعالى من الوحي على

الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾المائدة: ٢٠ الاية . وقال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا ﴾الأعراف: ١٦٠ ، قال القرطبي: وسموا الأسباط من السبط، وهو التتابع، فهم جماعة ، وقيل: أصله من السبط، بالتحريك، وهو الشجر، أي: في الكثرة بمنزلة الشجر الواحدة سبطة. قال الزجاج: ويبين لك هذا: ما روي عن ابن عباس قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلاَّ عشرة: نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد (عليهم الصلاة والسلام). قال القرطبي: والسبط: الجماعة والقبيلة، الراجعون إلى أصل واحد.وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به، ويصدقُوا بكتبه كلّها وبرسله.

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾البقرة: ١٣٧-١٣٨ .

يقول تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ ﴾ يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ أي: فقد أصابوا الحق، وأرشدوا إليه ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي: عن الحق إلى الباطل، بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ ﴾ أي: فسينصرك عليهم ويُظْفِرُك بهم ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾البقرة: ١٣٧ .

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس أن نبي الله (ص) قال: ((إنْ بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل يَصْبُغ ربك؟ فقال: اتقوا الله. فناداه ربه: يا موسى، سألوك هل يَصْبُغ ربك؟ فقل: نعم، أنا أصبُغ الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها من صَبْغي)). كذا وقع في رواية ابن مردويه مرفوعًا، وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف، وهو أشبه، إن صح إسناده، والله أعلم .

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة:٩٨ - ١٤١

يقول الله تعالى مرشدا نبيه (صلوات الله وسلامه عليه) إلى درء مجادلة المشركين: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ ﴾ أي: أتناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتباع أوامره وترك زواجره ﴿ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له! ﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ أي: نحن برآء منكم، وأنتم بُرَآء منا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾يونس: ٤١ ، وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ ﴾ آل عمران: ٢٠ الآية . وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾البقرة: ٢٥٨ .

وقال في هذه الآية الكريمة:﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾أي: نحن برآء منكم كما أنتم برآء منا، ونحن له مخلصون، أي في العبادة والتوجه.

ثم أنكر تعالى عليهم، في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية فقال: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾؟ يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ آل عمران: ٦٧ .

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم: إِنْ الدين الإسلامُ، وإِنَّ محمداً رسول الله، وإِنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فشهد الله بذلك، وأقروا به على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك. وقوله: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد شديد، أي: علمه

محيط بعملكم، وسيجزيكم عليه.ثم قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي: قد مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم، من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم منقادين لأوامر الله واتباع رسله، الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما من كفر بسيد الأنبياء، وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من سائر المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

.الشيخ مغنية:

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾ البقرة: ١٣٥-١٣٨

اللغة: الحنيف هو المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، ومعنى هذا في النتيجة أن الحنيف هو المستقيم، وقيل للأعرج: أحنف تفاؤلاً بالسلامة، كما قيل للدبغ: سليم، وللبادية المهلكة مفازة. والأسباط واحدها سبط، وسبط الرجل حفيده ولد ولده، والأسباط من بني إسرائيل اثنا عشر سبطاً من اثني عشر ابناً ليعقوب، وهم بمنزلة القبائل العربية من ولد إسماعيل. والشقاق المنازعة مأخوذ من الشق، وهو الجانب، أي أن كل واحد أصبح في شق غير شق صاحبه، وصبغة مأخوذة من الصبغ، قال صاحب مجمع البحرين: إن النصارى كانوا إذا ولد لهم مولود غمسوه في ماء أصفر، يسمونه المعمودية ويعتبرون ذلك تطهيراً له، وهو بمنزلة الختان عند

المسلمين فقال الله سبحانه: التطهير هو صبغة الله أي أن المطهر الحقيقي للعقول والقلوب هو الدين الحق.

الإعراب: تهتدوا مجزوم بجواب الأمر، وهو كونوا، لأن معنى الشرط، أي أن تكونوا على اليهودية والنصرانية تهتدوا، ولفظ ملة منصوب بفعل محذوف، أي نتبع ملة إبراهيم، وحنيفاً حال من إبراهيم، ولفظ صبغة الله منصوب على المصدر، أي صبغنا صبغة الله، وصبغة من قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ البقرة: ١٣٨ تمييز محول عن المبتدأ، أي ومن صبغته أحسن من صبغة الله.

المعنى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ الضمير في قالوا يعود إلى أهل الكتاب، والمعنى قالوا اليهود، كونوا يهوداً تهتدوا، لأن الهداية بزعمهم تنحصر بهم وحدهم، وقال النصارى مثل قول اليهود.. وقال الله لنبيه الأكرم محمد (ص): ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ أي لا نتبع اليهودية، ولا النصرانية، بل نتبع مِلّة إبراهيم، وقد ذكرنا في تفسير الآية ١١١ ـ ١١٣ ما يلقي ضوءاً على هذه الادّعاءات وما إليها.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾: الخطاب للمسلمين. ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ وهو القرآن. ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ وهي صحف إبراهيم، وقيل: إنها عشر. ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ هما ولدا إبراهيم، وإسماعيل أكبر من إسحق، وأمه هاجر، وأم إسحق سارة. ويعقوب، ابن اسحق، والصحف لم تنزل إليهم جميعاً، وإنما أنزلت إلى إبراهيم فقط، ولكن صحت نسبة الإنزال إلى الجميع بالنظر إلى أنهم متعبدون بها، وداعون إليها، تماماً كما يصح لنا نحن المسلمين أن نقول: أنزل القرآن إلينا، لأننا نؤمن ونعمل به وندعو إليه.

﴿ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ هم حفدة يعقوب من أبنائه الإثني عشر، وهم بمنزلة القبائل العربية من ذرية إسماعيل، وفي الأسباط أنبياء كثيرون كداوود، وسليمان، ويحيى، وزكريا، وأيضاً فيهم المؤمنون الذين تعبدوا بصحف إبراهيم (ع).

﴿ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ التوراة والإنجيل، ﴿ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ

مِن رَّبِّهِمْ ﴾ كالزبور المنزلة على داوود، ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾. أي نؤمن بالجميع، سواء من كان له كتاب يؤثر، أو لم يكن، ولسنا كاليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، بل الجميع عندنا سواء، من حيث الاعتراف بنبوتهم.. وبديهة أن الإيمان بجميع الأنبياء إنما يجب بنحو الإجمال، ولسنا مكلفين بالتفاصيل إلا بعد البيان من كتاب أو سنة.

﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ أي معترفون له بالوحدانية، ومخلصون في العبودية.

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ أي فإن آمنوا إيماناً صحيحاً وهو التوحيد الخالص من شوائب الشرك، واعترفوا بجميع الأنبياء بما فيهم محمد، تماماً كما آمن المسلمون بجميع الأنبياء دون استثناء فعندها يكونون مهتدين.. وليس المراد أن يؤمنوا بدين مثل دين الإسلام، إذ لا مثيل للإسلام إطلاقاً.

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ﴾ كل من عاند الحق فقد شق العصا، وبدّد الشمل ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ إذ لا يحيق المكر السّيءُ إلا بأهله.

والكلمة الجامعة باختصار لكل ما قدمناه هي أن الإسلام يرفض التعصب ويدعو للتعاون على أساس الخير والعدل، ويعترف بالحق أينما كان ويكون، ويدعو أتباعه أن يفتحوا قلوبهم للناس، كل الناس في مودة وإخلاص.

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ وهي دين الحق الذي يطهّر القلوب والعقول من الأقذار والأكدار، لا الغمس بالماء الأصفر، كما تفعل النصارى، ولا غير ذلك.

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ ۖ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة:٩٨ - ١٤١

المعنى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ ﴾ سبق في تفسير الآية ٩٢ ـ ٩٦، أن اليهود

عارضوا النبي حرصاً على مصالحهم، وعلى المال الذي كانوا يجمعونه من بذل العرض وإباحته، ومن الربا والغش، والخمر والميسر، وما إليه مما حرمه الإسلام، وقد برروا المعارضة بأسباب لا تمت إلى الواقع بشبه. من تلك الأسباب ما قاله المفسرون في تفسير هذه الآية من أن اليهود قالوا للنبي (ص): إنك لست نبياً، لأن الله لا يرسل الأنبياء إلا من اليهود. وبالمناسبة يزعم اليهود أن الله لهم وحدهم وإنه إله قبيلة وليس إله العالم. وأيضاً أنكر زعماء النصارى وصناديد قريش نبوة محمد (ص) خوفاً على مكانتهم ومصالحهم، وتذرعوا بالاباطيل كما تذرع اليهود، حيث قال النصارى ـ كما جاء في التفاسير: لو أرسل الله نبياً لكان منا لا من العرب، أما صناديد قريش فقالوا: لو أرسله من العرب لاختاره من الطبقة الثرية القوية، كما أشارت الآية ٣١ من الزخرف: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾الزخرف: ٣١ . والآية ٨ من الفرقان ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾الفرقان: ٨ .

﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ هذا تماماً كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي إن خصامكم في اختيار الله وإنعامه علي تعود آثاره عليكم وحدكم، تماماً كما يعود ضرر الكفر على الكافر ونفع الإيمان على المؤمن ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ من دونكم لأنكم تتحكمون على الله، وتريدونه أن ينزل على رغبتكم، أما نحن فنفوّض الأمر كله إليه ونستسلم لحكمه.

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ البقرة: ١٤٠ هذا عطف على أتحاجوننا في الله، والمعنى بأي الأمرين تتشبثون؟ أفي قولكم بأن الله لا يرسل من العرب نبياً، أم بدين إبراهيم وبنيه وحفدته؟ فإن تشبثتم بالأول فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وإن تشبثتم بالثاني فإن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً لا يهودياً ولا نصرانياً، لأن اليهودية والنصرانية حدثتا بعده وبعد بنيه الأسباط.. فعلى كلا التقديرين قولكم باطل لا مبرر له.. ويرشدنا القرآن في هذه المحاورة إلى الأسلوب الذي ينبغي أن نتبعه مع الخصم، وأن نعتمد في خصامِه وإفحامه على منطق العقل الذي يقتنع به ويتسالم عليه جميع العقلاء.

﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ قدمنا أن كلاً من اليهود والنصارى قالوا: نحن أولى بالنبوة. فأمر الله نبيه الكريم أن يرد عليهم بقوله: أأنتم أعلم حيث يجعل رسالته، أم هو؟ إن الرسول لله ومن الله، ومع هذا تريدون أنتم أن تختاروه؟ وهل أنتم أوصياء عليه؟

تعالى الله علواً كبيراً.. وهل أجهل وأسخف ممن يقول لك: أنا أعلم منك بما يعجبك ويرضيك، وبما يغضبك ويؤذيك؟ وهل أكثر حمقاً من جاهل لا يعرف شيئاً يقول لمن اخترع سفينة الفضاء ـ مثلاً ـ أنا أعرف بها منك؟ ـ ولست أعرف قولاً أبلغ في التجهيل والتقريع من قوله تعالى: أأنتم أعلم أم الله.. نستغفره ونعوذ به مما يقول ويفعل المبطلون.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ من الله متعلق بشهادة، أو بمحذوف صفة للشهادة، تقديره شهادة كائنة من الله.. ومعنى الكلام أن عندكم يا معشر اليهود والنصارى شهادة من الله قرأتموها في التوراة والإنجيل، وهي أن الله سبحانه سيبعث نبياً عربياً من أبناء إسماعيل (ع)، ومع ذلك كتمتم الشهادة، وتجرأتم على الله بتحريف كتابه تعصباً للباطل، وعناداً للحق، فاستوجبتم اللعنة والعذاب.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ هذه الآية تقدم ذكرها بالحرف الواحد برقم ١٣٤. وردت هناك لبيان أن إخلاص إبراهيم (ص) وعظمته لا تجدي اليهود والنصارى شيئاً، وجاءت هذه الآية هنا لبيان أن أعمال اليهود والنصارى تباين عقيدة إبراهيم وعمله. إذن دعواهم بأنهم على ملة إبراهيم كذب وافتراء، وتكلمنا عند تفسير الآية ٤٨ عن التكرار في القرآن.

ـ السيد قطب:

وإنّما كان قول اليهود: كونوا يهوداً تهتدوا، وكان قول النصارى: كونوا نصارى تهتدوا فجمع الله قوليهم ليوجّه نبيه (ص) أن يواجههم جميعاً بكلمة واحدة.

﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ قل: بل نرجع جميعاً نحن وأنتم إلى ملّة إبراهيم، أبينا وأبيكم وأصل ملّة الإسلام وصاحب العهد مع ربه عليه ﴿ ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ بينما أنتم تشركون.

ثم يدعو المسلمين لإعلان الوحدة الكُبرى للدين، من لدّن إبراهيم أبي الأنبياء إلى عيسى بن مريم إلى الإسلام الأخير.. ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٦

تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعاً وبين الرُّسل جميعاً، هي قاعدة التصوّر الإسلامي وهي التي تجعل من الأمة المسلمة، الأمة الوارثة لتُراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض، الموصولة بهذا الأصل العريق، السائر في الدرب على هدى ونور، والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياة في ظله دون تعصب ولا اضطهاد، والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام.

﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ ﴾

وهذه الكلمة من الله وهذه الشهادة من الله تسكب في قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه فهو وحده المهتدي.. ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المُشاق للحق المُعادي للهدى، وليس على المؤمن من شقاق من لا يهتدي ولا يُؤمن ولا عليه من كيده ومكره ولا عليه من جداله ومعارضته فالله سيتولاهم عنه، وهو كافيه وحسبه.

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

إنه ليس على المؤمن إلاّ أن يستقيم على طريقته، وأن يعتز بالحق المُستمدّ مباشرة من ربه وبالعلاقة التي يضعها الله على أوليائه فيُعرفون بها في الأرض.

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ البقرة: ١٣٨ .

صبغة الله التي شاء لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر لتقوم عليها وحدة

إنسانية واسعة الآفاق، لا تعصب فيها ولا حقد ولا أجناس فيها ولا ألوان.

ونقف هنا عند سمّة من سمّات التعبير القرآني ذات الدلالة العميقة، إنّ صدر هذه الآية من كلام الله التقريري ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ ﴾. أما باقيها فهو من كلام المؤمنين.

ثم تمضي الحجّة الدامغة إلى نهايتها الحاسمة.

﴿ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴾

ولا مجال للجدل في وحدانية الله وربوبيته فهو ربنا وربكم ونحن محاسبون بأعمالنا وعليكم وزر أعمالكم، ونحن متجرّدون له مخلصون لا نُشرك به شيئاً ولا نرجو معه أحداً.. وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم، وهو غير قابل للجدل والمُحاججة واللجاج.

ومن ثم يضرب السياق عنه، وينتقل إلى مجال آخر، من مجالات الجدل يظهر أنه هو الآخر غير قابل للحاجة والمُحال.

﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ ﴾وهم كانوا أسبق من موسى وأسبق من اليهودية والنصرانية والله يشهد بحقيقة دينهم وهو الإسلام.

﴿ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ ﴾وهو سؤال لا جواب عليه وفيه من الاستنكار ما يقطع الألسنة دون الجواب عليه، ثم أنّكم لتعلمون أنهم كانوا قبل أن تكون اليهودية والنصارنية، وكانوا على الحنفية الأولى التي لا تُشرك بالله شيئاً. ولديكم كذلك شهادة في كتبكم أن سيبعث نبي في آخر الزمان دينه الحنيفية، دين إبراهيم ولكنكم تكتمون هذه الشهادة.

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾والله مُطلع على ما تخفون من الشهادة التي ائتمنتم عليها، وما تقومون به من الجدال فيها لتعميتها وتلبيسها.

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾وحين يصل السّياق إلى هذه القمة في الإفحام،

إلى هذا الفصل في القضية، وإلى بيان ما بين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وبين اليهود المُعاصرين من مفارقة تامة في كل اتجاه.. عندئذ يُعيد الفاصلة التي ختم بها الحديث من قبل عن إبراهيم وذريته.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

وبها فصل الخطاب، ونهاية الجدل والكلمة الأخيرة في تلك الدعاوى الطويلة العريضة.

ـ السيد فضل الله:

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ﴾ أي يهود أو نصارى، فقد انطلق كل فريق من أتباع هذين الدينين ليؤكد صحة دينه في مقابل الإسلام الذي دخل فيه الناس هناك، على أساس أن اليهودية من وجهة نظر اليهود أو النصرانية من وجهة نظر النصارى، هي الوسيلة الوحيدة التي تقود إلى الهدى في قضايا الدنيا والآخرة انطلاقاً من دعواهم بأنّهم هم الذين يمثلون شريعة إبراهيم في خصوصياتهم العقيدية والشرعية والأخلاقية التي أصبحت جزءاً من هذا الدين أو ذاك ممّا يختلف عن خصوصيات الدين الإسلامي الذي جاء به النبي محمد (ص).

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد، أو من يقف مثل هذا الموقف في ساحة المواجهة من المسلمين.

﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ التي تُمثّل الملّة المستقيمة على منهج الله في امتداد وحيّه، المائلة عن كل الاتجاهات الباطلة من الأديان المُنحرِفة بسبب الأهواء والأغراض والأطماع الإنسانية ومن المبادئ التي أبدعها الإنسان من فكره الذاتي وتجربته الشخصية مما لا علاقة له بالله ورسله.

وقد اختلف المفسرون في تفسير «الحنيفية» التي هي «ملّة إبراهيم» بين تفسير يحصرها في دائرة تشريع معين، وبين قائل: بأنها «حج البيت» كما عن ابن عباس والحسن ومجاهد. وبين قائل: إنّها الطهارة وهي عشرة: خمسة في الرأس وخمسة في

البدن، فأما التي في الرأس فأخذ الشارب وإعفاء اللحى وطمّ الشعر «حزه وتوفيره» والسواك والخلال، وأما التي في البدن فأخذ الشعر من البدن والختان وقلم الأظفار والغسل من الجنابة والطهور بالماء، وهي الحنيفية الطاهرة التي جاء بها إبراهيم فلم تنسخ ولن تنسخ إلى يوم القيامة، كما في تفسير القمي. وبين تفسير يتسع بها إلى أي موقع يُمل «اتباع الحق» أو ينفتح بها على الإخلاص لله وحده في الإقرار بالربوبية والإذعان بالعبودية، ممّا يختزن في داخل مفهومه كل المفردات التي تفرضها حركة العبودية في الإنسان أمام الربوبية الإلهية.

والظاهر أن القول الأخير هو أقرب الأقوال إلى المنهج الرسالي الذي يتصل بالحياة الروحية والمادية للإنسان ممّا يعتقده أو يعمله أو ينفتح عليه والله أعلم.

وهكذا يريد الله للنبي ولمن اتبعه أن يؤكّد لهم أن ملّة إبراهيم الحنيفية هي الملّة الجامعة التي تُمثّل الخط العريض المستقيم للهدى، فمن اتبعها اهتدى، وليس الهدى بالأهواء والخصوصيات الذاتية أو الفئوية التي تؤدي إلى التفسيرات والتأويلات والتخيلات التي تتحوّل إلى طوائف ومذاهب، فقد أنزل الله على إبراهيم رسالته التوحيدية التي تُعبّر عن توحيد الله في كل شيء، في العقيدة والشريعة والعبادة والحياة ممّا فصّله الأنبياء من بعده، من خلال وحي الله الذي يعطي كل مرحلة حاجاتها، التي مهما تنوّعت فإنها تلتقي على التوحيد الذي آمن به إبراهيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾ البقرة: ١٣٦

أي قولوا أيها المسلمون لكل الذين يجادلونكم في الدين، نحن نؤمن بالله الواحد ونؤمن بكل ما أنزل إلينا وإلى هؤلاء.

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ من التوراة والإنجيل.

﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ممّا أنزله الله عليهم وكلفهم به.

﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ لأننا نؤمن بالرُسل كلّهم مهما اختلفت خصوصياتهم

ومراحلهم كما نؤمن بالكتاب كلّه مهما تنوّعت آياته.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فإنّنا نسلّم إلى الله كل حياتنا وكل أمورنا، لأن الإسلام هو دين الله في كل مواقعه في حركة الرُسل في التاريخ.

ويعلّق السيد فضل الله على هذه الآية: ١ ـ أنها تُمثّل أنموذجاً لأسلوب الحوار في الإسلام، وخلاصة البحث عن مواطن اللقاء في بداية الحديث من أجل الإيحاء بوجود قاعدة مُشتركة للفكر المتنوّع، وأرض مشتركة للموقف المتعدّد، ممّا يوحي للآخر بأنّك إذا اختلفت معه في إيمانك بما أُنزل إليك من القرآن فإنك لن تختلف معه في إيمانك بما يؤمن به من التوراة والإنجيل وصُحف إبراهيم وتعاليم النبوات المشتركة بين الأديان من خلال الأنبياء الذين يلتقون على رسالات الله، فيلتقي المؤمنون على الإيمان بهم.

٢ ـ إن هناك اختلافاً في التعبير في الآية، فقد عبّر عمّا عندنا وعمّا عند إبراهيم وإسحاق ويعقوب «بالإنزال» وعند موسى وعيسى والنبيين «بالإيتاء» وهو الإعطاء كما أشار إلى ذلك في تفسير الميزان. بأن اليهود والنصارى يعتبرون «إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من أهل ملّتهم، فاليهود من اليهود والنصارى من النصارى واعتقادهم أن الملّة الحقة من النصرانية أو اليهودية هي ما أُوتيه موسى وعيسى، فلو كان قيل وما أُوتي إبراهيم وإسماعيل، لم يكن تصريح في كونهم بأشخاصهم صاحب ملّة بالوحي. والإنزال واحتمل أن يكون ما أوتوه هو الذي أوتيه موسى وعيسى (ع) نُسب إليهم بحكم التبعية، كما نُسب إيتاؤه إلى بني إسرائيل فلذلك خصّ إبراهيم ومن عطف عليه باستعمال لفظ الإنزال، وأمّا النبيّون قيل إبراهيم فليس لهم فيهم كلام حتى يوهم قوله: وما أوتي النبيون شيئاً يجب دفعه».

وخلاصة الفكرة: هي أنّ المطلوب هو بيان استقلالية إبراهيم ومن بعده موسى وعيسى ممّا يفرُض اختلاف التعبير الذي يوحي بتعدّد المواقع. ولكنّنا نلاحظ أن ذلك لا يدلّ على اختلاف فريق الأيتاء وفريق الإنزال في طبيعة الرسالة، فلا مانع من أن يكون ما أُوتيه إبراهيم وفريقه هو نفسه الذي أُوتيه موسى وعيسى مع إنزال الوحي

على هذا أو ذاك مع وحدة المضمون الرسالي في تنوّع الخصائص، وهذا ما يريد الله تأكيده في القرآن من الإيمان بالكتاب كلّه وبالرُسل كلّهم الذين يلتقون على الخطوط العامة، حيث يكون الإيمان وأحدهم إيماناً بالآخر.

﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ من الشمولية في الإيمان للأنبياء كلّهم وللكتاب كلّه.

﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ إلى الطريق الحق الذي يؤدي بهم إلى الجنة، وربّما كان التعبير بكلمة «مثل» مع أن المقصود المضمون الإيماني نفسه للمحافظة على شخصية المُحاور الآخر الذي لا يريد أن يلغي ذاته بالسقوط تحت تأثير الآخر، للإيحاء بأنّ المسألة مسألة توافق في الرأي الواحد بحيث يصدرُ من كل واحد منهما بشكل مستقلّ، على نهج توارد الأفكار أو الخواطر.

﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ وأعرضوا عن الإيمان وأنكروا مضمونه الحقّ وجحدوه.

﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ في نزاع لإثارة الجدال المُعقد الذي لا يُريد أن يصِل بالحديث إلى نتيجة حاسمة، بل يريد أن يُربك الأجواء بالمزيد من عناصر الفرقة والاختلاف للإبقاء على خط الكفر من دون أن يتحوّل السائرون عليه إلى خط الإيمان.

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ ويحميك من شرهم وينصرُك عليهم لتكون كلمتك التي هي كلمة الله هي العُليا، وكلمتهم التي هي كلمة الشيطان السفلى.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ الذي يسمع أقوالهم ويعلُم أعمالهم، فلن يصلوا إليك بسوء ما دُمت في حماية الله ورعايته.

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ إنه الإيمان الذي يمنح صاحبه اللون المميّز، الذي يطبع الذات بطابعه في جميع خصائصها، تماماً كما هو الصبغ عندما يطبع الثوب أو الجسد فيلوّن كل جزئياته.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ البقرة: ١٣٨ لأنّه الخالق الذي يُعطي الإنسان وجوده ويمنحُه أفضل الامتيازات المعنوية والروحية التي تمنَحه حُسناً وإشراقاً.

﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ وسائرون على النهج الذي أرادنا أن ننهجه في الحياة في

تأكيد معنى عبوديتنا له التي هي سرّ التوحيد والفطرة التي تنطلق في الذات بالإسلام في جميع إيحاءاتها وألوانها، وذلك خلافاً لمن يرون الصِباغ أمراً مادياً، كما هي المعمودية لدى النصارى، في دخول الإنسان في دين الله.

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ ﴾ لأنكم الأقرب إليه دوننا، باعتبار أنكم شعب الله المختار، أو أبناء الله وأحباؤه، أو لأن لكم إلهاً يختلف عن إلهنا، وكلّ ذلك باطل.

﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ فهو رب العالمين جميعاً لا فرق في موقع ربوبيته بين إنسان وآخر، ولا ميزة لأحد على أحد إلاّ بالأعمال وهو الذي يحدّد للناس وظائفهم ومهماتهم ومسؤولياتهم في تدبير أمورهم وأمور من حولهم وما حولهم.

﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ فهي التي تحدّد لكل منّا موقعه منه وقربه إليه.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ في إيماننا به وتوحيدنا له وعبادتنا إياه، وهذا ما يجعلنا في الخط المستقيم الذي أرشدنا إليه وهدانا له.

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾البقرة: ١٤٠ لتؤكد بذلك شرعية أوضاعكم بانتساب خطكم إلى خط إبراهيم الذي كان الرمز العظيم للقاعدة الرسالية الممتدة في حركة الرسل والرسالات، لتحصلوا على غطاء رسالي لإنحرافاتكم الفكرية والعملية.

﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ وقد أخبركم بأنّ التوراة والإنجيل اللتين تنتمي إليهما اليهودية والنصرانية قد أنزلتا من بعدها، فكيف يكون انتماؤه إليهما من خلال الصفتين اللتين تلتصقونا به، وذلك هو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران: ٦٥ . وهذا الاستفهام للتوبيخ لا للحقيقة، إذ لا معنى لها في الموضوع، فوزنة وزن قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ النازعات: ٢٧ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾البقرة: ١١٤

ممّا يعلمه من شؤون الرُسل والرسالات، لأن ذلك يؤدي إلى تشويه الحقيقة

وتزييف الواقع وإيقاع الناس في الضلال، وهو من أبشع انواع الظلم، لأنه يسلُب الإنسان حقه في وعي الحقيقة الرسالية التي تتوقف عليها استقامة الإنسان في حياته.

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ من كل هذه الانحرافات الفكرية والعملية، فيحاسبكم عليها تبعاً للنتائج السلبية التي تترتب عليها في حياتهم وحياة الناس من حولهم.

﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ ﴾ من أعمالها التي تتحمّل مسؤولياتها.

﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ من أعمالكم التي تواجهون حساباتها يوم القيامة.

﴿وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أن القاعدة الإسلامية تفرض المسؤولية الفردية في حركة الإنسان كما جاء في قوله تعالى:﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾النجم: ٣٨ - ٣٩ .

وقد كرّر الآية ليؤكد (بعد كل قصة من قصص التاريخ) هذه الحقيقة الحضارية القائمة على خط التوازن العملي في مضمون العدل الإلهي في حياة الإنسان، ليمنع الإنسان من الاستغراق في كهوف الماضي وفي خلافاته، لتكون حياته انفتاحاً على مسؤولية الحاضر والمستقبل اللذين يصنعهما بفكره وعمله في دوره في بناء الحياة على أساس متين.

. الطبري:

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ البقرة: ١٣٥

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ ﴾ وقالت اليهود لمحمد (ص) وأصحابه من المؤمنين: كونوا هوداً تهتدوا، وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى تهتدوا. تعني بقولها تهتدوا، أي تصيبوا طريق الحق.

احتج الله لنبيه محمد (ص) أبلغ حجّة وأوجزها وأكملها، وعلّمها محمداً نبيه (ص) فقال: يا محمد، قل للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك: «كونوا هوداً

أو نصارى تهتدوا»: بل تعالوا نتبع ملّة إبراهيم التي يجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه واجتباه وأمر به فإن دينه كان الحنيفية المسلمة وندع سائر الملل التي نختلف فيها، فينكرها بعضنا، ويقرّ بها بعضنا. فإن ذلك على اختلافه لا سبيل لنا على الاجتماع عليه، كما لنا السبيل إلى الاجتماع على ملّة إبراهيم.

﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

والملّة: الدين. وأما الحنيف: فإنه المستقيم من كل شيء.

وأمّا أهل التأويل فإنهم اختلفوا في تأويل ذلك. فقال بعضهم: الحنيف الحاج. وقيل: إنّما سُمّي دين إبراهيم الإسلام الحنيفية، لأنه أول إمام لزم العباد الذين كانوا في عصره، والذين جاؤوا بعده إلى يوم القيامة اتباعه في مناسك الحج، والائتمام به فيه. قالوا: فكل من حج البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته، فهو حنيف، مسلم على دين إبراهيم.

وقال آخرون: إنّما سُمّي دين إبراهيم الحنيفية، لأنه أول إمام سنّ للعباد الختان، فاتّبعه من بعده عليه. قالوا: فكل من اختثن على سبيل اختتان إبراهيم، فهو على ما كان عليه إبراهيم من الإسلام، فهو حنيف على ملّة إبراهيم.

وقال آخرون: بل ملة إبراهيم حنيفاً، مخلصاً. فالحنيف على قولهم: المخلص دينه لله وحده.

وقال آخرون: بل الحنيفية الإسلام. فكل من ائتم بإبراهيم في ملّته فاستقام عليها، فهو»حنيف».

الحنف عندي، هو الاستقامة على دين إبراهيم، واتباعه على ملّته. وذلك أن الحنيفية لو كانت حج البيت، لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء. وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفا بقوله: ﴿ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾آل عمران: ٦٧ . فكذلك القول في الختان. لأن الحنيفية لو كانت هي الختان، لوجب أن يكون اليهود حُنفاء. وقد أخرجهم الله من

ذلك بقوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ آل عمران: ٦٧ . فقد صحّ إذًا أن الحنيفية ليست الختانَ وحدَه، ولا حجَّ البيت وحده، ولكنه هو ما وصفنا: من الاستقامة على ملة إبراهيم، واتباعه عليها، والائتمام به فيها.

وأما قوله: ﴿ مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ يقول: إنه لم يكن ممّن يدين بعبادة الأوثان والأصنام، ولا كان من اليهود، ولا من النصارى، بل كان حنيفاً مسلماً.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٦

يعني تعالى ذكره بذلك: قولوا أيها المؤمنون، لهؤلاء اليهودِ والنصارَى، الذين قالوا لكم: كونوا هُودًا أو نصارى تَهتدوا : «آمنا»، أي صدَّقنا «بالله».

وقد دلّلنا فيما مضى أنّ معنى»الإيمان»، التصديقُ، بما أغنى عن إعادته.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، يقول أيضًا: صدّقنا بالكتاب الذي أنزل الله إلى نبيّنا محمد (ص). فأضاف الخطاب بالتنزيل إليهم، إذ كانوا متّبعيه، ومأمورين منهيين به. فكان وإنْ كان تنزيلاً إلى رسول الله (ص) بمعنى التنزيل إليهم، للذي لهم فيه من المعاني التي وصفتُ.

ويعني بقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، صدَّقنا أيضاً وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم «وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباط»، وهم الأنبياء من ولد يَعقوب.

وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾، يعني: وآمنا أيضًا بالتوراة التي آتاها الله موسى، وبالإنجيل الذي آتاه الله عيسى، والكُتب التي آتى النبيين كلهم، وأقرَرنا وصدّقنا أن ذلك كله حَق وهُدى ونور من عند الله، وأن جَميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على حق وهدى، يُصدِّق بعضهم بعضًا، على منهاج واحد في الدعاء إلى توحيد الله، والعمل بطاعته، ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، يقول: لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض، ونتبرَّأ من بعضٍ ونتولى بعضًا، كما تبرأت اليهودُ من عيسى

ومحمد عليهما السلام وأقرّت بغيرهما من الأنبياء، وكما تبرأت النصارَى من محمد (ص) وأقرّت بغيره من الأنبياء، بل نشهد لجميعهم أنّهم كانوا رسلَ الله وأنبياءَه، بعثوا بالحق والهدى.

وأما قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، فإنه يعني تعالى ذكره: ونحنُ له خاضعون بالطاعة، مذعنون له بالعبودية. فذُكر أنّ نبيّ الله (ص) قال ذلك لليهود، فكفروا بعيسى وبمن يؤمن به.

﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ البقرة: ١٣٧

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾، فإن صدّق اليهودُ والنصارَى بالله، ومَا أنزل إليكم، وما أنزل إلى إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ، ومَا أوتي مُوسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، وأقروا بذلك، مثلَ ما صدّقتم أنتم به أيّها المؤمنون وأقررتم، فقد وُفِّقوا ورَشِدوا، ولزموا طريق الحق، واهتدوا، وهم حينئذ منكم وأنتم منهم، بدخولهم في ملتكم بإقرارهم بذلك. فدلّ تعالى ذكره بهذه الآية، على أنه لم يقبل من أحد عَملاً إلاّ بالإيمان بهذه المعاني التي عدَّها قَبلها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ ﴾

يعنى تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ ﴾، وإن تولى هؤلاء الذين قالوا لمحمد (ص) وأصحابه: «كونوا هودًا أو نصارَى» فأعرضوا، فلم يؤمنوا بمثل إيمانكم أيّها المؤمنون بالله، وبما جاءت به الأنبياءُ، وابتُعِثت به الرُسل، وفرّقوا بين رُسُل الله وبين الله ورسله، فصدّقوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ فاعلموا، أيها المؤمنون، أنهم إنما هُمْ في عصيان وفِرَاق وحَربٍ لله ولرسوله ولكم.

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فسيكفيكَ الله يا محمد، هؤلاء الذين قالوا لَكَ ولأصحابك: «كونوا هودًا أو نَصَارَى تهتدوا»، من اليهود والنصارى، إنْ هم تولوْا عن أن يؤمنوا بمثل إيمان أصحابك بالله، وبما أنزل إليك، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وسائر الأنبياء غيرهم، وفرقوا بين الله ورُسُله إما بقتل السيف، وإما بجلاء عن جوارك، وغير ذلك من العقوبات؛ فإن الله هو «السميع» لما يقولون لك بألسنتهم، ويبدون لك بأفواههم، من الجهل والدعاء إلى الكفر والملل الضّالة «العليمُ» بما يُبطنون لك ولأصحابك المؤمنين في أنفسهم من الحَسد والبغضاء. ففعل الله بهم ذلك عَاجلاً وأنجزَ وَعْده، فكفى نبيّه (ص) بتسليطه إيّاه عليهم، حتى قتل بعضهم، وأجلَى بعضًا، وأذلّ بعضًا وأخزاه بالجزية والصَّغار.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ البقرة: ١٣٨ .

يعنى تعالى ذكره بالصبغة: صبغةَ الإسلام. وذلك أنّ النصارى إذا أرادت أن تنصِّر أطفالهم، جعلتهم في ماء لهم تزعم أن ذلك لها تقديس، بمنزلة غُسل الجنابة لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية. فقال الله تعالى ذكره إذ قالوا لنبيه محمد (ص) وأصحابه المؤمنين به: ﴿كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾: قل لهم يا محمد: أيها اليهود والنصارى، بل اتبعوا ملة إبراهيمَ، صبغة الله التي هي أحسن الصِّبَغ، فإنها هي الحنيفية المسلمة، ودعوا الشركَ بالله، والضلالَ عن محجَّة هُداه. ونصب «الصبغة» من قرأها نصبًا على الردِّ على»الملة». وكذلك رَفع»الصبغة» من رَفع»الملة»، على ردّها عليها. وقد يجوز رفعها على غير هذا الوجه. وذلك على الابتداء، بمعنى: هي صبغةُ الله. وقد يجوز نصبها على غير وجه الرّد على «الملة»، ولكن على قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، «صبغةَ الله»، بمعنى: آمنا هذا الإيمان، فيكون الإيمان حينئذ هو صبغةُ الله. وبمثل الذي قلنا في تأويل «الصبغة» قال جماعة من أهل التأويل.

﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾، أمرٌ من الله تعالى نبيَّه (ص) أن يقوله لليهود

والنصارى، الذين قالوا له ولمن تبعه من أصحابه: ﴿كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾. فقال لنبيه محمد (ص): قُلْ بل نتبعُ ملة إبراهيم حنيفًا، صبغةَ الله، ونحنُ له عابدون. يعني: ملة الخاضعين لله المستكينين له، في اتّباعنا ملة إبراهيم، وَدِيْنُونتنا له بذلك، غير مستكبرين في اتباع أمره، والإقرار برسالته رسلَه، كما استكبرت اليهودُ والنصارَى، فكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم استكبارًا وبغيًا وحسدًا.

* * *

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ البقرة:١٣٩

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ ﴾، قل يا محمد لمعاشر اليهود والنصارى، الذين قالوا لك ولأصحابك: ﴿كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، وزعموا أن دينهم خيرٌ من دينكم، وكتابهم خير من كتابكم، لأنه كان قبلَ كتابكم، وزعموا أنهم من أجل ذلك أولى بالله منكم: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾، بيده الخيرات، وإليه الثواب والعقابُ، والجزاءُ على الأعمال الحسنات منها والسيئات، فتزعمون أنكم بالله أوْلى منا، من أجل أن نبيكم قبل نبينا، وكتابكم قبل كتابنا، وربّكم وربّنا واحدٌ، وأنّ لكلّ فريق منا ما عمل واكتسب من صالح الأعمال وسيئها، يجازى فيثابُ أو يعاقبُ، لا على الأنساب وقدمَ الدِّين والكتاب.

ويعني بقوله: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا ﴾، قل أتخاصموننا وتجادلوننا؟

فأما قوله: ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾، فإنه يعني: ونحن لله مُخلصو العبادةِ والطاعة، لا نشرك به شيئًا، ولا نعبد غيره أحدًا، كما عبد أهل الأوثان معه الأوثانَ، وأصحاب العِجل معه العجلَ. وهذا من الله تعالى ذكره توبيخٌ لليهود، احتجاجاً لأهل الإيمان، بقوله تعالى ذكره للمؤمنين من أصحاب محمد (ص): قولوا أيها المؤمنون، لليهود والنصارى الذين قالوا لكم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ ﴾؟ يعني بقوله: ﴿فِي ٱللَّهِ ﴾، في دين الله الذي أمَرَنا أن نَدينه به، ربنا وربكم واحدٌ عدلٌ لا يجور، وإنما يجازي العبادَ عَلى ما اكتسبوا. وتزعمون أنّكم أولى بالله

منا، لقدم دينكم وكتابكم ونبيكم، ونحنُ مُخلصون له العبادةَ، لم نشرك به شَيئًا، وقد أشركتم في عبادتكم إياه، فعبد بعضكم العجلَ، وبعضكم المسيحَ، فأنَّى تكونون خيرًا منا، وأولى بالله منا.

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٣٥ - ١٤١

وهذه الآية أيضًا احتجاجٌ من الله تعالى ذكره لنبيّه (ص) على اليهود والنصارى، الذين ذكر الله قَصَصهم. يقول الله لنبيه محمد (ص): قُلْ يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى: أتحاجُّوننا في الله، وتزعمون أن دينكم أفضلُ من ديننا، وأنكم على هدى ونحنُ على ضَلالة، ببرهان من الله تعالى ذكره، فتدعوننا إلى دينكم؟ فهاتوا برهانكم على ذلك فنتبعكم عليه، أم تقولون: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباط كانوا هودًا أو نَصَارَى على دينكم؟ فهاتُوا على دعواكم ما ادّعيتم من ذلك برهانًا فنصدِّقكم، فإن الله قد جَعلهم أئمة يقتدى بهم. ثم قال تعالى لنبيه (ص): قُل لهم يا محمد إن ادَّعوا أن إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ كانوا هودًا أو نصَارَى: أأنتم أعلم بهم وبما كانوا عليه من الأديان، أم الله؟

* * *

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾

يعني: فإنْ زَعمتْ يا محمد اليهودُ والنصَارى الذين قالوا لك ولأصحابك: «كونوا هودًا أو نصارى»، أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى، فمن أظلمُ منهم؟ يقول: وأيُّ امرئ أظلم منهم؟ وقد كتموا شهادةً عندهم من الله بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ كانوا مسلمين، فكتموا ذلك، ونحلُوهم اليهوديةَ والنصرانية.

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك:

كما حدثت عن عمار قال: حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أهلُ الكتاب، كتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دينُ الله، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل: أنّهم لم يكونوا يهودَ ولا نصارَى، وكانت اليهودية والنصرانية بعد هؤلاء بزمان.

وقال آخرون: بل عَنى تعالى ذكره بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، اليهودَ في كتمانهم أمرَ محمد (ص) ونبوَّتَه، وهم يعلمون ذلك ويجدونه في كتبهم.

فإن قال قائل: وأية شهادة عندَ اليهود والنصارى من الله في أمر إبراهيم وإسماعيل وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ؟ قيل: الشهادةُ التي عندهم من الله في أمرهم، مأ أنزل الله إليهم في التوراة والإنجيل، وأمرُهم فيها بالاستنان بسُنَّتهم واتباع ملّتهم، وأنهم كانوا حُنفاء مسلمين. وهي الشهادةُ التي عندهم من الله التي كتموها، حين دعاهم نبي الله (ص) إلى الإسلام، فقالوا له: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ البقرة: ١١١، وقالوا له ولأصحابه: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾، فأنزلَ الله فيهم هذه الآيات، في تكذيبهم، وكتمانهم الحق، وافترائهم على أنبياء الله الباطلَ والزُّورَ.

* * *

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾يعني تعالى ذكره بذلك: وقل لهؤلاء اليهود والنصارَى، الذين يحاجُّونك يا محمد: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، من كتمانكم الحق فيما ألزَمكم في كتابه بيانَه للناس من أمر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطِ في أمر الإسلام، وأنهم كانُوا مسلمين، وأنّ الحنيفية المسلمة دينُ الله الذي على جميع الخلق الدينُونةُ به، دون اليهودية والنصرانية وغيرهما من الملل ولا هُو سَاهٍ عن عقابكم على فعلكم ذلك، بل هو مُحْصٍ عليكم حتى يُجازيكم به من الجزاء ما أنتم له أهلٌ في عاجل الدنيا وآجل الآخرة. فجازاهم عاجلا في الدنيا، بقتل بعضهم،

وإجلائه عن وطنه وداره، وهو مُجازيهم في الآخرة العذابَ المهين.

* * *

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله:﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ ﴾، إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ.

وقد بَيَّنا في ما مضى أن الأمة، الجماعة. فمعنى الآية إذًا: قلْ يا محمد لهؤلاء الذين يُجادلونك في الله من اليهود والنصارى، إن كتموا ما عندَهم من الشهادة في أمر إبراهيم ومن سَمَّينا مَعه، وأنهم كانوا مسلمين، وزعموا أنهم كانوا هودًا أو نصارى، فكذبوا: إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ أمَّةٌ قد خَلتْ أي مضت لسبيلها فصارت إلى ربها، وخَلتْ بأعمالها وآمالها، لها عند الله ما كسبت من خير في أيام حياتها، وعليها ما اكتسبت من شر، لا ينفعها غيرُ صالح أعمالها، ولا يضرها إلا سيِّئها. فاعلموا أيها اليهود والنصارى ذلك، فإنكم، إنْ كان هؤلاء وهم الذين بهم تَفتخرون، وتزعمون أنّ بهم تَرجُون النجاةَ من عذاب ربكم، مع سيئاتكم وعظيم خطيئاتكم لا يَنفعهم عند الله غيرُ ما قدَّموا من صالح الأعمال، ولا يضرهم غير سيئها، فأنتم كذلك أحرَى أنْ لا ينفعكم عند الله غير ما قدمتم من صالح الأعمال، ولا يضرّكم غيرُ سَيئها. فاحذروا على أنفسكم، وبادروا خروجَها بالتوبة والإنابة إلى الله ممّا أنتم عليه من الكفر والضلالة والفِرية على الله وعلى أنبيائه ورُسُله، ودَعُوا الاتكالَ على فَضَائل الآباء والأجداد، فإنما لكم ما كسبتم، وعليكم ما اكتسبتم، ولا تُسألون عما كان إبراهيم وإسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ والأسباط يَعملون من الأعمال، لأن كل نفس قَدِمت على الله يوم القيامة، فإنما تُسأل عما كسبت وأسلفت، دون ما أسلفَ غيرُها.

ـ الطبرسي:

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

المعنى : ﴿ وَقَالُواْ ﴾ الضمير يرجع إلى اليهود والنصارى أي: قالت اليهود ﴿ كُونُواْ هُودًا ﴾ وقالت النصارى كونوا ﴿ نَصَٰرَىٰ ﴾

كل فريق منهم دعا إلى ما هو عليه، ومعنى: ﴿تَهۡتَدُواْ﴾ أي: تصيبوا طريق الحق كأنهم قالوا تهتدوا إلى الحق أي: إذا فعلتم ذلك كنتم قد اهتديتم وصرتم على سنن الاستقامة ﴿ قُلۡ ﴾ يا محمد ﴿ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ ﴾ أي: بل نتبع دين إبراهيم وعلى الوجه الآخر بل اتبعوا دين إبراهيم، وقد عرفت الوجوه الثلاثة في الإعراب فلا معنى لإعادتها ﴿ حَنِيفٗا ﴾مستقيماً، وقيل مائلاً إلى دين الإسلام، وفي الحنيفية أربعة أقوال : أحدها: أنها حج البيت عن ابن عباس والحسن ومجاهد. وثانيها: أنها اتباع الحق عن مجاهد. وثالثها: أنها اتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس بعده من الحج والختان وغير ذلك من شرائع الإسلام . والرابع: أنها الإخلاص لله وحده في الإقرار بالربوبية والإذعان للعبودية وكل هذه الأقوال ترجع إلى ما قلناه من معنى الاستقامة، والميل إلى ما أتى به إبراهيم (ع) من الملة ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ أي: وما كان إبراهيم من المشركين نفى الشرك عن ملته وأثبته في اليهود والنصارى حيث قالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وفي قوله سبحانه: ﴿ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ ﴾ حجة على وجوب اتباع ملة إبراهيم (ع) لسلامتها من التناقض ولوجود التناقض في اليهودية والنصرانية، فلذلك صارت ملة إبراهيم أحرى بالإتباع من غيرها فمن التناقض في اليهودية منعهم من جواز النسخ مع ما في التوراة من الدلالة على جوازه، وامتناعهم من العمل بما تقدمت به البشارة في التوراة من اتباع النبي الأمي مع إظهارهم التمسك بها وامتناعهم من الإذعان لما دلت عليه الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة من نبوة عيسى ومحمد (ص) مع إقرارهم بنبوة عيسى بدلالة المعجزات عليها إلى غير ذلك من أنواع التناقض ومن التناقض في قول النصارى قولهم الأب والابن وروح القدس إله واحد مع زعمهم أن الأب ليس هو الابن وأن

الأب إله والابن إله وروح القدس إله وامتناعهم من أن يقولوا ثلاثة آلهة إلى غير ذلك من تناقضاتهم المذكورة في الكتب .

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

المعنى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ خطاب للمسلمين، وقيل: خطاب للنبي والمؤمنين أمرهم الله تعالى بإظهار ما تدينوا به على الشرع فبدأ بالإيمان بالله، لأنه أول الواجبات، ولأنه بتقدم معرفته تصح معرفة النبوات والشرائع ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ يعني القرآن نؤمن بأنه حق وصدق وواجب اتباعه في الحال، وإنْ تقدمته كتب ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾ قال قتادة: هم يوسف وإخوته بنو يعقوب ولد كل واحد منهم أمة من الناس فسموا الأسباط، وبه قال السدي والربيع ومحمد بن إسحاق: وذكروا أسماء الاثني عشر يوسف وبنيامين وزابالون وروبيل ويهوذا وشمعون ولاوي ودان وقهاب ويشجر ونفتالي وجاد وأشرفهم ولد يعقوب لا خلاف بين المفسرين فيه، وقال كثير من المفسرين أنهم كانوا أنبياء والذي يقتضيه مذهبنا أنهم لم يكونوا أنبياء بأجمعهم لأن ما وقع منهم من المعصية فيما فعلوه بيوسف (ع) لا خفاء به والنبي عندنا معصوم من القبائح صغيرها وكبيرها وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أنهم كانوا أنبياء. وقوله: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ ﴾ إليهم لا يدل على أنهم كانوا أنبياء لأن الإنزال يجوز أن يكون كان على بعضهم ممن كان نبياً، ولم يقع منه ما ذكرناه من الأفعال القبيحة، ويحتمل أن يكون مثل قوله: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾، وأن المنزل على النبي خاصة لكن المسلمين لما كانوا مأمورين بما فيه أضيف الإنزال إليهم، وقد روى العيَّاشي في تفسيره عن حنان بن سدير، عن أبيه، عن أبي جعفر الباقر(ع) قال قلت له: أ كان ولد يعقوب أنبياء قال لا ولكنهم كانوا أسباطاً أولاد الأنبياء، ولم يكونوا فارقوا الدنيا إلاَّ سعداء تابوا وتذكروا

ما صنعوا، وقوله: ﴿ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ أي: أعطيا وخصهما بالذكر، لأنه احتجاج على اليهود والنصارى والمراد بما أوتي موسى التوراة وبما أوتي عيسى الإنجيل ﴿ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ ﴾ أي: ما أعطيه النبيون ﴿ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي: بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعله اليهود والنصارى فكفرت اليهود بعيسى ومحمد وكفرت النصارى بسليمان ونبينا محمد (ص) ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ أي: نحن لما تقدم ذكره، وقيل: لله خاضعون بالطاعة مذعنون بالعبودية، وقيل منقادون لأمره ونهيه، وقد مضى هذا مستوفى فيما قبل، وفائدة الآية الأمر بالإيمان بالله والإقرار بالنبيين وما أنزل إليهم من الكتب والشرائع، والرد على من فرق بينهم فيما جمعهم الله عليه من النبوة، وإِنْ كانت شرائعهم غير لازمة لنا فإنَّ الإيمان بهم لا يقتضي لزوم شرائعهم، وروي عن الضحاك أنه قال: علموا أولادكم وأهاليكم وخدمكم أسماء الأنبياء الذين ذكرهم الله في كتابه حتى يؤمنوا بهم ويصدقوا بما جاءوا به فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ الآية .

﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

المعنى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ ﴾ أخبر الله سبحانه أن هؤلاء الكفار متى آمنوا على حد ما آمن المؤمنون به ﴿ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ ﴾ إلى طريق الجنة، وقيل: سلكوا طريق الاستقامة والهداية وقيل كان ابن عباس يقول اقرءوا بما آمنتم به فليس لله مثل وهذا محمول على أنه فسر الكلام لا أنه أنكر القراءة الظاهرة مع صحة المعنى. وقوله: ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ ﴾أي: أعرضوا عن الإيمان وجحدوه ولم يعترفوا به ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ أي: في خلاف قد فارقوا الحق وتمسكوا بالباطل فصاروا مخالفين لله سبحانه عن ابن عباس، وقريب منه ما روي عن الصادق (ع) أنه قال: يعني في كفر. وقيل: في ضلال عن أبي عبيدة. وقيل: في منازعة ومحاربة عن أبي زيد. وقيل: في عداوة عن الحسن ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ وعد الله سبحانه رسوله بالنصرة وكفاية من

يعاديه من اليهود والنصارى الذين شاقوه، وفي هذا دلالة بينة على نبوته وصدقه (ص) المعنى أن الله سبحانه يكفيك يا محمد أمرهم ﴿وهُوَ السمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأعمالهم في إبطال أمرك ولن يصلوا إليك .

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ البقرة: ١٣٨ .

المعنى:﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: اتبعوا دين الله عن ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد ويقرب منه ما روي عن الصادق (ع) قال يعني به الإسلام وقيل شريعة الله التي هي الختان الذي هو تطهير عن الفراء والبلخي وقيل فطرة الله التي فطر الناس عليها عن أبي العالية وغيره ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: لا أحد أحسن من الله صبغة أي بينا لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه: الجحد عن الحسن وغيره ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ أي: من نحن له عابدون يجب أن تتبع صبغته لا ما صبغنا عليه الآباء والأجداد، وقيل: ونحن له عابدون في اتباعنا ملة إبراهيم صبغة الله .

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾

المعنى :أمر الله سبحانه نبيه (ص) في هذه الآية أن يقول لهؤلاء اليهود وغيرهم ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ومعناه: في دين الله أي: أ تخاصموننا وتجادلوننا فيه وهو سبحانه خالقنا والمنعم علينا وخالقكم والمنعم عليكم، واختلف في محاجتهم كيف كان فقيل: كانت محاجتهم للنبي (ص) أنهم يزعمون أنهم أولى بالحق لتقدم النبوة فيهم والكتاب، وقيل: بل كانت محاجتهم أنهم قالوا: نحن أحق بالإيمان من العرب الذين عبدوا الأوثان، وقيل: كانت محاجتهم أنهم قالوا: يا محمد إنْ الأنبياء كانوا منا ولم يكن من العرب نبي فلو كنت نبياً لكنت منا، وقال: الحسن كانت محاجتهم أن قالوا: نحن أولى بالله منكم، وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلاَّ من كان هوداً أو نصارى، وكان غرضهم بذلك أن الدين يلتمس من جهتهم وأن

النبوة أولى أن تكون فيهم فبين سبحانه أنه أعلم بتدبير خلقه بقوله:﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أي: خالقنا وخالقكم فهو أعلم حيث يجعل رسالته ومن الذي يقوم بأعبائها ويتحملها على وجه يكون أصلح للخلق وأولى بتدبيرهم، وقوله: ﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾

أي: لنا ديننا، ولكم دينكم ، وقيل: معناه ما علينا مضرة من أعمالكم وما لكم منفعة من أعمالنا فضرر أعمالكم عليكم ونفع أعمالنا لنا، وقيل: إنه إنكار لقولهم إِنَّ العرب تعبد الأوثان وبيان لأن لا حجة فيه إذ كل مأخوذ بما كسبت يداه ولا يؤخذ أحد بجرم غيره، وقوله: ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ أي: موحدون والمراد بذلك أن المخلص أولى بالحق من المشرك، وقيل: معناه الرد عليهم ما احتجوا به من عبادة العرب للأوثان فكأنه قال: لا عيب علينا في ذلك إِذا كنا موحدين كما لا عيب عليكم بفعل من عبد العجل من أسلافكم إِذا اعتقدتم الإِنكار عليهم في ذلك.

روي عن حذيفة بن اليمان قال سألت النبي (ص) عن الإخلاص ما هو قال سألت جبريل (ع) عن ذلك، قال سألت رب العزة عن ذلك، فقال هو سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي. وروي عن أبي إدريس الخولاني عن النبي (ص) قال: إِنَّ لكل حق حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحب أن يحمد على شيء من عمل الله، وقال: سعيد بن جبير الإِخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله لله ولا يشرك به في دينه ولا يرائي بعمله أحداً. وقيل: الإخلاص أن تستوي أعمال العبد في الظاهر والباطن وقيل هو ما استتر من الخلائق واستصفى من العلائق وقيل هو أن يكتم حسناته كما يكتم سيئاته .

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٤٠

المعنى: قد ذكرنا الفرق في المعنى بين قوله: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ ﴾ على المخاطبة، وقوله: أم يقولون بالياء على أن يكون المعنى لليهود والنصارى وهم غيب، وفي هذا احتجاج عليهم في قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ من وجوه أحدها: ما أخبر به نبينا (ص) مع ظهور المعجز الدال على صدقه. والثاني: ما في التوراة والإنجيل من أن هؤلاء الأنبياء كانوا على الحنيفية. والثالث: أن عندهم إنما يقع اسم اليهودية على من تمسك بشريعة التوراة واسم النصرانية على من تمسك بشريعة الإنجيل والكتابان أنزلا بعدهم كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾. والرابع: أنهم ادعوا ذلك من غير برهان فوبخهم الله سبحانه بهذه الوجوه. وقوله: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ صورته صورة الاستفهام والمراد به التوبيخ ومثله قوله: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ ومعناه: قل يا محمد لهم أ أنتم أعلم أم الله وقد أخبر سبحانه أنهم كانوا على الحنيفية وزعمتم أنهم كانوا هوداً أو نصارى فيلزمكم أن تدعوا أنكم أعلم من الله ، وهذا غاية الخزي فإنْ قيل: لِمَ قال أ أنتم أعلم أم الله وقد كانوا يعلمونه فكتموه وإنما ظاهر هذا الخطاب لمن لا يعلم، فالجواب أن من قال إنهم كانوا على ظن وتوهم فوجه الكلام على قوله واضح ، ومن قال أنهم كانوا يعلمون ذلك، وإنما كانوا يجحدونه، فمعناه: أن منزلتكم منزلة المعترض على ما يعلم أن الله أخبر به فما ينفعه ذلك مع إقراره بأن الله أعلم منه، وأنه لا يخفى عليه شيء، لأن ما دلّ على أنه أعلم هو الدال على أنه لا يخفى عليه شيء، وهو أنه عالم لذاته يعلم جميع المعلومات. وقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ فيه أقوال: أحدها: أن من في قوله من الله لابتداء الغاية وهو متصل بالشهادة لا بالكتمان، ومعناه: وما أحد أظلم ممن يكون عنده شهادة من الله فيكتمها، والمراد بهذه الشهادة أن الله تعالى بين في كتابهم صحة نبوة محمد (ص)، والبشارة به عن الحسن وقتادة. وقيل: المراد بها أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده كانوا حنفاء مسلمين فكتموا هذه

الشهادة وادعوا أنهم كانوا على دينهم عن مجاهد، فهذه شهادة من الله عندهم كتموها. والثاني: أن من متصل بالكتمان أي من أظلم ممن كتم ما في التوراة من الله أي من عبادة الله أو كتم شهادة أن يؤديها إلى الله . والثالث: أن المراد من أظلم في كتمان الشهادة من الله لو كتمها وذلك نحو قولهم من أظلم ممن يجور على الفقير الضعيف من السلطان الغني القوي، والمعنى أنه يلزمكم أنه لا أحد أظلم من الله إذا كتم شهادة عنده ليوقع عباده في الضلال، وهو الغني عن ذلك المتعالي أي: لو كانوا هوداً أو نصارى لأخبر بذلك، وهذا المعنى قول البلخي وأبي مسلم. وقوله: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ أوعدهم سبحانه بما يجمع كل وعيد أي: ليس الله بساه عن كتمان الشهادة التي لزمكم القيام بها لله، وقيل: هو على عمومه أي: لا يخفى على الله شيء من المعلومات فكونوا على حذر من الجزاء على أعمالكم بما تستحقونه من العقاب.

﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ قد مضى تفسير هذه الآية، وقيل: في وجه تكراره إنه عنى بالأول إبراهيم، ومن ذكر معه من الأنبياء (ع) ، وبالثاني أسلاف اليهود، وقيل: إنه إذا اختلفت الأوقات والمواطن لم يكن التكرير معيباً ووجه اتصال الآية بما قبلها أنه يقول: إذا سلم لكم ما ادعيتم من أن الأنبياء كانوا على دين اليهودية أو النصرانية فليس لكم فيه حجة؛ لأنه لا يمتنع اختلاف الشرائع بالمصالح فلله سبحانه أن ينسخ من الشرائع ما شاء ويقر منها ما شاء على حسب ما تقتضيه الحكمة، وقيل: إنْ ذلك ورد مورد الوعظ لهم والزجر حتى لا يتكلموا على فضل الآباء والأجداد فإنْ ذلك لا ينفعهم إذا خالفوا أمر الله .

ـ القرطبي:

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ

ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ البقرة: ١٣٥

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ ﴾ دعت كل فرقة إلى ما هي عليه؛ فرد الله تعالى ذلك عليهم فقال: ﴿بَلۡ مِلَّةَ﴾ أي قل: يا محمد: بل نتبع ملة؛ فلهذا نصب الملة. وقيل: المعنى بل نهتدي بملة إبراهيم؛ فلما حذف حرف الجر صار منصوباً، وقرأ الأعرج وابن أبي عبلة: ﴿بَلۡ مِلَّةُ﴾ بالرفع؛ والتقدير بل الهدى ملّةُ، أو ملتنا دين إبراهيم.

و﴿حَنِيفاً﴾ مائلاً عن الأديان المكروهة إلى الحق دين إبراهيم؛ وهو في موضع نصب على الحال، قاله الزجاج. أي بل نتبع ملة إبراهيم في هذه الحالة. وقال علي بن سليمان هو منصوب على أعني، والحال خطأ، لا يجوز جاءني غلام هند مسرعة. وسمي إبراهيم حنيفاً لأنه حنف إلى دين الله وهو الإسلام. والحنف: الميل؛ ومنه رجْلٌ حنفاء، ورجل أحنف، وهو الذي تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٦

قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ خرّج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله (ص): «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل» الآية.

وقال محمد بن سيرين: إذا قيل لك أنت مؤمن؟ فقل: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ ﴾ الآية. وكره أكثر السلف أن يقول الرجل: أنا مؤمن حقاً؛ وسيأتي بيانه في (الأنفال) إن شاء الله تعالى. وسئل بعض المتقدمين عن رجل قيل له: أتؤمن بفلان النبي؛ فسمّاه باسم لم يعرفه، فلو قال: نعم، فلعله لم يكن

نبياً، فقد شهد بالنبوة لغير نبي، ولو قال: لا، فلعله نبي، فقد جحد نبياً من الأنبياء؛ فكيف يصنع؟ فقال: ينبغي أن يقول: إن كان نبياً فقد آمنت به. والخطاب في هذه الآية لهذه الأمة، علمهم الإيمان. قال ابن عباس: جاء نفر من اليهود إلى النبي (ص) فسألوه عمن يؤمن به من الأنبياء، فنزلت الآية. فلما جاء ذكر عيسى قالوا: لا نؤمن بعيسى ولا من آمن به.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ جمع إبراهيم براهيم، وإسماعيل سماعيل، قاله الخليل وسيبيوه، وقاله الكوفيون، وحكَوْا براهمة وسماعلة، وحكوا ابراهم وسماعل.

والأسباط: وَلَد يعقوب عليه السلام، وهم اثنا عشر ولداً، ولد لكل واحد منهم أمة من الناس؛ واحدهم سبط، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل.

وسمّوا الأسباط من السبّط وهو التتابع؛ فهم جماعة متتابعون. وقيل: أصله من السّبط (بالتحريك) وهو الشجر؛ أي هم في الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سبَطَة. قال أبو إسحاق الزجاج ويبين لك هذا ما حدثنا به محمد بن جعفر الأنباري قال: حدثنا أبو نجيد الدقاق قال: حدثنا الأسود بن عامر قال: حدثنا إسرائيل هم سِماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوحاً وشعيباً وهوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمداً (ص). ولم يكن أحد له اسمان إلا عيسى ويعقوب. والسّبط: الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد وشعر سَبْط وسَبط: غير جَعْد. (لا نفرق بين أحد منهم) قال الفراء: أي لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود والنصارى.

﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ البقرة: ١٣٧

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ الخطاب لمحمد (ص) وأمته. والمعنى: فإن آمنوا مثل إيمانكم، وصدقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا؛ فالمماثلة وقعت بين الإيمانيْن، وقيل إن الباء زائدة مؤكدة.

قوله تعالى:﴿ وَّإِن نَّوَلَّوۡاْ ﴾ أي عن الإيمان ﴿ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ ﴾ قال زيد بن أسلم: الشقاق المنازعة. وقيل: الشقاق المجادلة والمخالفة والتعادي. وأصله من الشقّ وهو الجانب، فكأن كلّ واحد من الفريقين في شق غير شق صاحبه.

قوله تعالى: ﴿ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي فسيكفي الله رسوله عدوّه. فكان هذا وعداً من الله تعالى لنبيه (ع) أنه سيكفيه من عانده ومن خالفه من المتولّين بمن يهديه من المؤمنين، فأنجز له الوعد، وكان ذلك في قتل بني قينقاع وبني قريظة وإجلاء بني النّضير. والكاف والهاء والميم في موضع نصب مفعولان. ويجوز في غير القرآن: فسيكفيك (إياهم). وهذا الحرف ﴿ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ هو الذي وقع عليه دم عثمان حين قتل بإخبار النبي(ص) إياه بذلك. و﴿السَّمِيعُ﴾ لقول كل قائل ﴿العَلِيمُ﴾ بما ينفذه في عباده ويجريه عليهم.

﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ البقرة: ١٣٨ .

قوله تعالى: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ ﴾ قال الأخفش وغيره: دين الله؛ وهو بدل من (ملة) وقال الكسائي: وهي منصوبة على تقدير اتبعوا: أو على الإغراء أي الزموا. ولو قُرئت بالرفع. لجاز؛ أي هي صبغة الله. وروى شيبان عن قتادة قال: إن اليهود تصبغ أبناءهم يهوداً، وإن النصارى تصبغ أبناءهم نصارى، وإن صبغة الله الإسلام. قال الزجاج: ويدلك على هذا أن ﴿ صِبۡغَةَ ﴾ بدل من (ملة). وإن معنى ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ ﴾ غسل الله؛ أي اغتسلوا عند إسلامكم الغسل الذي أوجبه الله عليكم. وبهذا المعنى جاءت السنة الثابتة في قيس بن عاصم وثمامة بن أثال حين أسلما. وقال الجوهري: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ ﴾ دينه. وقيل: إن الصبغة الختان، اختتن إبراهيم فجرت الصبغة على الختان لصبغهم الغلمان في الماء؛ قاله الفراء: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ ابتداء وخبر.

﴿ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴾ البقرة:١٣٩

قال الحسن: كانت المحاجة أن قالوا: نحن أولى بالله منكم، لأنا أبناء الله وأحباؤه. وقيل: لتقدم آبائنا وكتبنا، ولأنا لم نعبد الأوثان. فمعنى الآية: قل لهم يا محمد، أي قل لهؤلاء اليهود والنصارى الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وادّعوا أنهم أولى منكم لقد مات آبائهم وكتبهم: ﴿ أَتُحَآجُّونَنَا ﴾

أي أتجاذبوننا الحجة على دعواكم والرب واحد وكل مجازى بعمله؛ فأي تأثير لقدم الدين. ومعنى ﴿ فِي ٱللَّهِ ﴾ أي في دينه والقرب منه والحظوة له. وقراءة الجماعة: ﴿ أَتُحَآجُّونَنَا ﴾وجاز اجتماع حرفين مثلين من جنس واحد متحركين؛ لأن الثاني كالمنفصل.

قوله تعالى:﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ أي مخلصون العبادة، وفيه معنى التوبيخ؛ أي ولم تخلصوا أنتم فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم! والإخلاص حقيقته تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين؛ قال (ص): «إن الله تعالى يقول أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكاً فهو لشريكي يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما خلص له ولا تقولوا هذا لله وللرّحم فإنها للرّحم وليس لله منها شيء ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله تعالى منها شيء». رواه الضحاك بن قيس الفهري قال: قال رسول الله... فذكره؛ خرّجه الدّارقُطني. وذكر أبو القاسم القشيري وغيره عن النبي (ص) أنه قال: «سألت جبريل عن الإخلاص ما هو فقال سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو قال سرّ من سرّي استودعته قلب من أحببته من عبادي».

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ أَمْ تَقُولُونَ ﴾ بمعنى قالوا، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص (تقولون) بالتاء وهي قراءة حسنة، لأن الكلام متّسق، كأن المعنى: أتحاجوننا في الله

أم تقولون إن الأنبياء كانوا على دينكم؛ فهي أم المتصلة وهي على قراءة من قرأ بالياء منقطعة؛ فيكون كلامين وتكون (أم) بمعنى بل. ﴿هُوداً﴾ خبر كان، وخبر (إن) في الجملة. ويجوز في غير القرآن رفع ﴿هُوداً﴾ على خبر (إنّ)، وتكون كان ملغاة، ذكره النحاس.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ تقرير وتوبيخ في ادّعائهم بأنهم كانوا هوداً أو نصارى. فردّ الله عليهم بأنه أعلم بهم منكم، أي لم يكونوا هوداً ولا نصارى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ لفظه الاستفهام، والمعنى: لا أحد أظلم. ﴿مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً ﴾ يريد علمهم بأن الأنبياء كانوا على الإسلام، وقيل: ما كتموه من صفة محمد (ص)، قاله قتادة، والأول أشبه بسياق الآية. ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد وإعلام بأنه لم يترك أمرهم سدى وأنه يجازيهم على أعمالهم. والغافل: الذي لا يفطن للأمور إهمالاً منه؛ مأخوذ من الأرض الغفل وهي التي لا علم بها ولا أثر عمارة.

وناقة غفْل: لا سمة بها. ورجل غفل: لم يجرب الأمور. وقال الكسائي: أرض غفل لم تمطر. غفلت عن الشيء غفلة وغفولاً، وأغفلت الشيء: تركته على ذكر منك.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾البقرة ١٤١

كررها لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أحْرى؛ فوجب التأكيد، فلذلك كرّرها.

ـ الشيرازي:

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ البقرة: ١٣٥-١٣٧

سبب النّزول:

عن ابن عباس أن جماعة من علماء اليهود ونصارى أهل نجران خاصموا أهل الإسلام، كل فرقة تقول إنها أحق بدين الله من غيرها، فقالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وقالت النصارى: عيسى أفضل الأنبياء، وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وكل فريق منهما قال للمؤمنين: كونوا على ديننا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

التمحور والإنغماس في الذاتية يؤدي إلى أنْ يحتكر الإنسان الحقّ لنفسه، ويعتبر الآخرين على باطل، ويسعى إلى أنْ يجرهم إلى معتقداته.

الآية الأُولى تتحدث عن مجموعة من أهل الكتاب يحملون مثل هذه النظرة الضيقة، ونقلت عنهم القول:﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ ﴾.

فيردّ عليهم القرآن مؤكداً أنْ الأديان المحرّفة لا تستطيع إطلاقاً أنْ تهدي الإنسان ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾التدين الخالص هو اتباع الخط التوحيدي الخالص غير المشوب بالشرك. ورعاية هذا الأساس أهم معيار للتمييز بين الأديان الصحيحة والأديان المنحرفة.

يعلمنا الإسلام أنْ لا نفرق بين الرسل، وأنْ نحترم رسالاتهم، لأن المبادئ الأساسية للأديان الحقّة واحدة، موسى وعيسى كانا أيضاً من أتباع ملة إبراهيم ... أي من أتباع الدين التوحيدي الخالص من الشرك، وإنَّ حرّف المغرضون من أتباعهما ما جاءا به، وجعلوه مشوباً بالشرك. و (كلامنا هذا لا يتنافى طبعاً مَعَ إيماننا بأن البشرية يجب أنْ تتبع آخر الاديان السماوية أي الإسلام).

الآية التالية تأمر المسلمين أنْ ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

لا يجوز أنْ ننطلق من محور الذاتية في الحكم على هذا النّبي أو ذاك، بل يجب أن ننظر إلى الأنبياء بمنظار رسالي، ونعتبرهم جميعاً رسل ربّ العالمين ومعلّمي البشرية، قد أدّى كلٌ منهم دوره في مرحلة تاريخية معينة، وكان هدفهم واحداً، وهو هداية النّاس في ظل التوحيد الخالص والحق والعدالة.

ثم يضيف القرآن قائلاً: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ ﴾.

ولو تخلى هؤلاء عن عنصريتهم وذاتياتهم، وآمنوا بجميع أنبياء الله فقد اهتدوا أيضاً، وإلاَّ ضلوا سواء السبيل.

و((الشّقاق)) النزاع والحرب، وفسرت في الآية بالكفر وبالضلال، وبالإبتعاد عن الحق والإتجاه نحو الباطل، وكل هذه المعاني تعود إلى حقيقة واحدة.

ذكر بعض المفسرين أنْ الآية السابقة التي ساوت بين عيسى وسائر الأنبياء. أثارت اعتراض جمع من النصارى وقالوا: إنَّ عيسى ليس كسائر الأنبياء، بل هو ابن الله، فنزلت هذه الآية لتؤكد على انحراف هؤلاء وأنهم في شقاق.

ثم تثبت الآية على قلوب المؤمنين وتبعث فيهم الثقة والطمأنينة بالقول: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۚ ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمؤامراتهم.

من هم الأسباط؟

الأسباط جمع سبط، والأسباط أحفاد يعقوب، وهم اثنا عشر سبطاً من اثني عشر ابناً، أو أنهم قبائل من بني إسرائيل، والسِّبط في اللغة: الجماعة يرجعون إلى أب واحد، والسَبَط (على وزن درج) قد يأتي بمعنى: الشجر، والأسباط الذين هم من شجرة واحدة، ويقال: سبط عليه العطاء، إذا تابع عليه حتى يصل بعضه ببعض.

المقصود من الأسباط ـ إذن ـ ليس أبناء يعقوب، فهؤلاء ارتكبوا جميعاً ذنباً بحق أخيهم ولا يصلحون للنبوّة، بل المقصود قبائل بني إسرائيل، أو أحفاد يعقوب ممن

كان لهم أنبياء. ولما كان بين هؤلاء الأسباط أنبياء، فالآية عدتهم بين أولئك الذين نزلت عليهم آيات الله.

الحنيف:

الحنيف، من مادة حَنَفَ: أي مال عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، وبه سميت الحنيفية، لأنها مالت عن اليهودية والنصرانية. وعكس ذلك ((جَنَفَ)) أي مال عن الطريق المستقيم إلى الإنحراف. ولهذا السبب كان أحد معاني الحنيف هو المستقيم والذي لا عوج فيه.

وللمفسرين آراء في الحنيفية، منها حج بيت الله، وأتباع الحق، وأتباع إبراهيم، والإخلاص في العمل، وكلها ترجع إلى معنى عام وشامل، ما ذكره المفسرون مصاديق لذلك.

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ ۖ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٣٨ - ١٤١

بعد الدّعوة التي وجهتها الآيات السابقة لإتّباع الأديان بشأن إنتهاج طريق جميع الأنبياء، أوّل آية في بحثنا تأمرهم جميعاً بترك كل صبغة، أي دين، غير ((صبغة الله)).

ثم تضيف الآية: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ ﴾البقرة: ١٣٨؟! أي لا أحسن من الله صبغة، ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ في اتباع ملّة إبراهيم التي هي صبغة الله، وقيل المعنى: من نحن له عابدون يجب أن تتبع صبغته، لا ما صَبَغَنا عليه الآباء والأجداد.

وبهذا أمر القرآن بالتخلي عن الصبغات العنصرية والطائفية والذاتية وعن كل

الصّبغات المفرّقة، والإتّجاه نحو صبغة الله.

ذكر المفسرون أنْ النصارى دأبوا على غسل أبنائهم بعد ولادتهم في ماء أصفر اللون، ويسمونه غسل التعميد، ويجعلون ذلك تطهيراً للمولود من الذنب الذاتي الموروث من آدم!

القرآن يرفض هذا المنطق الخاوي، ويقول: من الأفضل أنْ تتركوا هذه الصبغات الظاهرية الخرافية المفرقة، وتصطبغوا بصبغة الله، لتطهر روحكم.

ما أجمل تعبير ((الصبغة)) في هذه الآية! وما أروع هذه الدعوة إلى الإصطباغ بصبغة الله!

لو حدث ذلك ... لو اختارت البشرية صبغة الله ... أي صبغة الطهر والتقوى والعدالة والمساواة والأُخوّة ... صبغة التوحيد والإخلاص ... لاستطاعت أنْ تستأصل جذور الشرك والنفاق والتفرقة ... إنّها في الحقيقة الصبغة التي لا لون بها وتطهر الإنسان من جميع الألوان.

وعن الإمام الصادق (ع): أن ((صِبْغَةَ اللهِ)) هِيَ الْاِسْلَامُ، وهذا إشارة إلى ما ذكرناه.

كان اليهود وغيرهم يحاجّون المسلمين بصور شتّى، كانوا يقولون: إنَّ جميع الأنبياء مبعوثون منا، وإنَّ ديننا أقدم الأديان، وكتابنا أعرق الكتب السماوية.

وكانوا يقولون: إنَّ عنصرنا أسمى من عنصر العرب، ونحن المؤهلون لحمل الرّسالة لا غيرنا، لأن العرب أهل أوثان.

وكانوا يدّعون أحياناً أنهم أبناء الله وأنْ الجنّة لهم لا لغيرهم.

القرآن يردّ على كلّ هذه الأقاويل ويقول: ﴿ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾.

فالله سبحانه ليس ربّ شعب أو قبيلة معينة، إنه ربّ العالمين.

واعلموا أيضاً أنْ لا امتياز لأحد على غيره إلاَّ بالأعمال، وكل شخص رهن أعماله ﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾.

مع فارق، هو إنَّ كثيراً منكم يشركون في توحيدهم: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾.

الآية التالية تجيب على واحد آخر من هذه الإدعاءات الفارغة وتقول: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾؟!

ثم تجيب الآية عن هذا الإدعاء بشكل رائع فتقول: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾؟! فالله أعلم أنهم ما كانوا يهوداً ولا نصارى.

وقد تعلمون أنتم أيضاً أنْ هؤلاء الأنبياء أدّوا رسالتهم قبل موسى وعيسى. وإنَّ كنتم لا تعلمون فاطلاق مثل هذه الأقوال بدون علم وتثبيت تهمة وذنب، وكتمان للحقيقة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ البقرة:١٤٠ .

اعلموا أنه ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

حين ينتهج الإنسان خط العناد واللجاج فإن إعراضه عن الحقيقة لا حدّ له، ينكر أبسط المسلّمات، ويرفض أوضح الواضحات. والآية تذكر نموذجاً لذلك في هذه المجموعة التي بلغ بها العناد واللجاج أنْ تعتبر أنبياء الله ـ الذين سبقوا موسى وعيسى من أمثال إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ــ من اليهود أو النصارى. وبذلك يكتمون حقيقة واضحة لها إرتباط بإيمان النّاس ومعتقداتهم، ولذلك يصف القرآن هؤلاء الذين يكتمون الحقائق بأنهم أظلم النّاس، لأنه لا ظلم أكبر من كتمان الحقائق عن النّاس عمداً، وجرّ الآخرين إلى طريق الضلال.

في آخر آية من الآيات التي نحن بصددها يقول سبحانه لهؤلاء القوم العنودين الجدليين: افترضوا أنْ ادعاءاتكم صحيحة، فهذا لا يعود عليكم بالنفع لأنه ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾البقرة ١٤١.

الأُمّة الحيّة ينبغي أنْ تعتمد على أعمالها لا على ذكريات تاريخها، والإنسان يجب أنْ يستند إلى فضائله، لا أنْ يجترّ مفاخر الآباء والأجداد.

. الفخر الرازي:

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ البقرة: ١٣٥

اعلم أنه تعالى لما بين الدلائل التي تقدمت صحة دين الإسلام حكى بعدها أنواعاً من شبه المخالفين الطاعنين في الإسلام.

الشبهة الأولى: حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ ولم يذكروا في تقرير ذلك شبهة، بل أصروا على التقليد، فأجابهم الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه. الأول: ذكر جواباً إلزامياً وهو قوله: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ وتقرير هذا الجواب أنه إن كان طريق الدين التقليد فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم، لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم والأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف إن كان المعول في الدين على التقليد، فكأنه سبحانه قال: إن كان المعول في الدين على الاستدلال والنظر، فقد قدمنا الدلائل، وإن كان المعول على التقليد فالرجوع إلى دين إبراهيم (عليه السلام) وترك اليهودية والنصرانية أولى.

فإن قيل: أليس أن كل واحد من اليهود والنصارى يدعي أنه على دين إبراهيم (عليه السلام).

قلنا:لما ثبت أن إبراهيم كان قائلاً بالتوحيد، وثبت أن النصارى يقولون بالتثليث، واليهود يقولون بالتشبيه، فثبت أنهم ليسوا على دين إبراهيم (عليه السلام)، وأن محمداً عليه السلام لما دعا إلى التوحيد، كان هو على دين إبراهيم.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾البقرة ١٣٦

اعلم أنه تعالى لما أجاب بالجواب الجدلي أولاً، ذكر بعده جواباً برهانياً في هذه الآية وهو: أن الطريق إلى معرفة نبوة الأنبياء (عليهم السلام) ظهور المعجز عليهم، ولما ظهر المعجز على يد محمد (صلى الله عليه وسلم) وجب الاعتراف بنبوته والإيمان

برسالته، فإن تخصيص البعض بالقبول وتخصيص البعض بالرد يوجب المناقضة في الدليل وأنه ممتنع عقلاً، فهذا هو المراد من قوله:﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ إلى آخر الآية، وهذا هو الغرض الأصلي من ذكر هذه الآية. فإن قيل: كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة، قلنا: نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقاً في زمانه فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود والنصارى لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز عليه، وأنكروا نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) مع قيام المعجز على يده، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق، ثم نقول في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن الله تعالى لما حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾البقرة: ١٣٥ ذكروا في مقابلته للرسول (عليه السلام): ﴿ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ ﴾ البقرة: ١٣٥ ثم قال لأمته: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ وهذا قول الحسن، وقال القاضي قوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ يتناول جميع المكلفين، أعني النبي (عليه السلام) وأمته، والدليل عليه وجهان: أحدهما: أن قوله: ﴿ قُولُوٓاْ ﴾ خطاب عام فيتناول الكل. الثاني: أن قوله: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ لا يليق إلاّ به (صلى الله عليه وسلم)، فلا أقل من أن يكون هو داخلاً فيه، واحتج الحسن على قوله بوجهين. الأول: أنه (عليه السلام) أمر من قبل بقوله: ﴿ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ ﴾. الثاني: أنه في نهاية الشرف، والظاهر إفراده بالخطاب.

والجواب: أن هذه القرائن وإن كانت محتملة إلاّ أنها لا تبلغ في القوة إلى حيث تقتضي تخصيص عموم قوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾أما قوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ فإنما قدمه لأن الإيمان بالله أصل الإيمان بالشرائع، فمن لا يعرف الله استحال أن يعرف نبياً أو كتاباً، وهذا يدل على فساد مذهب التعليمية والمقلدة القائلين بأن طريق معرفة الله تعالى: الكتاب والسنة.

أما قوله: ﴿وَالأَسْبَاطَ﴾ قال الخليل: السبط في بني إسرائيل كالقبيلة في العرب، وقال صاحب «الكشاف» السبط، الحافد، وكان الحسن والحسين سبطي رسول

الله (صلى الله عليه وسلم)، والأسباط: الحفدة وهم حفدة يعقوب (عليه السلام) وذراري أبنائه الإثني عشر.

أما قوله: ﴿لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّنْهُمْ﴾ ففيه وجهان. الأول: أنا لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فإنا لو فعلنا ذلك كانت المناقضة لازمة على الدليل وذلك غير جائز. الثاني: لا نفرق بين أحد منهم، أي لا نقول: إنهم متفرقون في أصول الديانات، بل هم مجتمعون على الأصول التي هي الإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾. الوجه الأول: أليق بسياق الآية.

أما قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فالمعنى أن إسلامنا لأجل طاعة الله تعالى لا لأجل الهوى، وإذا كان كذلك فهو يقتضي أنه متى ظهر المعجز وجب الإيمان به. فأما تخصيص بعض أصحاب المعجزات بالقبول، والبعض بالرد، فذلك يدل على أن المقصود من ذلك الإيمان ليس طاعة الله والانقياد له، بل اتباع الهوى والميل.

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ البقرة: ١٣٧ .

اعلم أنه تعالى لما بين الطريق الواضح في الدين، وهو أن يعترف الإنسان بنبوة من قامت الدلالة على نبوته، وأن يحترز في ذلك عن المناقضة: رغبهم في مثل هذا الإيمان فقال: ﴿فَإِنْ ءامَنُواْ بِمِثْلِ مَا ءامَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدُواْ﴾.

قوله: ﴿وَّإِنْ تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ أي إن تركوا مثل هذا الإيمان فقد التزموا المناقضة والعاقل لا يلتزم المناقضة ألبتة فحيث التزموها علمنا أنه ليس غرضهم طلب الدين والانقياد للحق وإنما غرضهم المنازعة وإظهار العداوة ثم للمفسرين عبارات. أولها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ في خلاف مذ فارقوا الحق وتمسكوا بالباطل فصاروا مخالفين لله. وثانيها: قال أبو عبيدة ومقاتل في شقاق. أي في ضلال. وثالثها:قال ابن زيد في منازعة ومحاربة.

ثم إنه تعالى لما وعده بالنصرة والمعونة أتبعه بما يدل على أن ما يسرون وما

يعلنون من هذا الأمر لا يخفى عليه تعالى فقال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم﴾ وفيه وجهان. الأول: أنه وعيد لهم والمعنى أنه يدرك ما يضمرون ويقولون وهو عليم بكل شيء فلا يجوز لهم أن يقع منهم أمر إلا وهو قادر على كفايته إياهم فيه. الثاني: أنه وعد للرسول (عليه السلام) يعني: يسمع دعاءك ويعلم نيتك وهو يستجيب لك ويوصلك إلى مرادك، واحتج الأصحاب بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم﴾ على أن سمعه تعالى زائد على علمه بالمسموعات لأن قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ بناء مبالغة فيتناول كونه عالماً بجميع المعلومات، فلو كان كونه سميعاً عبارة عن علمه بالمسموعات لزم التكرار وأنه غير جائز، فوجب أن يكون صفة كونه تعالى سميعاً أمراً زائداً على وصفه بكونه عليماً والله أعلم بالصواب.

﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ البقرة: ١٣٨ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر الجواب الثاني وهو أن ذكر ما يدل على صحة هذا الدين ذكر بعده ما يدل على أن دلائل هذا الدين واضحة جلية فقال:﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ ﴾ثم في الآية مسائل:

المسألة الأولى: الصبغ ما يلون به الثياب ويقال:صبغ الثوب يصبغه بفتح الباء وكسرها وضمها ثلاث لغات صبغاً بفتح الصاد وكسرها لغتان. (والصبغة) فعلة من صبغ كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ، ثم اختلفوا في المراد بصبغة الله على أقوال. الأول:أنه دين الله وذكروا في أنه لم سمي دين الله بصبغة الله وجوهً. أحدها: أن بعض النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون:هو تطهير لهم. وإذا فعل الواحد بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً. فقال الله تعالى: اطلبوا صبغة الله وهي الدين، والإسلام لا صبغتهم، والسبب في إطلاق لفظ الصبغة على الدين طريقة المشاكلة كما تقول لمن يغرس الأشجار وأنت تريد أن تأمره بالكرم: اغرس كما يغرس فلان تريد رجلاً مواظباً على الكرم، ونظيره قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾البقرة: ١٤ - ١٥ ، ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾النساء: ١٤٢ ، ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ ﴾ آل عمران: ،

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾الشورى: ٤٠ ، ﴿ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ ﴾هود: ٣٨ .

وثانيها: اليهود تصبغ أولادها يهودا والنصارى تصبغ أولادها نصارى بمعنى يلقونهم فيصبغونهم بذلك لما يشربون في قلوبهم، عن قتادة قال ابن الأنباري:يقال: فلان يصبغ فلاناً في الشيء، أي يدخله فيه ويلزمه إياه كما يجعل الصبغ لازماً للثواب وأنشد ثعلب:

دع الشر وأنزل بالنجاة تحرزاً إذا أنت لم يصبغك في الشر صابغ

وثالثها: سمي الدين صبغة لأن هيئته تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة، قال الله تعالى:﴿ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾الفتح: ٢٩ . ورابعها: قال القاضي قوله: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٣٦ إلى قوله:﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾العنكبوت: ٤٦ فوصف هذا الإيمان منهم بأنه صبغة الله تعالى ليبين أن المباينة بين هذا الدين الذي اختاره الله، وبين الدين الذي اختاره المبطل ظاهرة جلية، كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لذي الحس السليم. القول الثاني: أن صبغة الله فطرته وهو كقوله: ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ﴾الروم: ٣٠ ومعنى هذا الوجه أن الإنسان موسوم في تركيبه وبنيته بالعجز والفاقة، والآثار الشاهدة عليه بالحدوث والافتقار إلى الخالق فهذه الآثار كالصبغة له وكالسمة اللازمة. قال القاضي: من حمل قوله: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ ﴾على الفطرة فهو مقارب في المعنى، لقول من يقول: هو دين الله لأن الفطرة التي أمروا بها هو الذي تقتضيه الأدلة من عقل وشرع، وهو الدين أيضاً، لكن الدين أظهر لأن المراد على ما بينا هو الذي وصفوا أنفسهم به في قوله﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ فكأنه تعالى قال في ذلك: إن دين الله الذي ألزمكم التمسك به فالنفع به سيظهر ديناً ودنيا كظهور حسن الصبغة، وإذا حمل الكلام على ما ذكرناه لم يكن لقول من يقول: إنما قال ذلك لعادة جارية لليهود والنصارى في صبغ يستعملونه في أولادهم معنى، لأن الكلام إذا استقام على أحسن الوجوه بدونه فلا فائدة فيه. وخامسها: أن صبغة الله هي الختان، الذي هو تطهير، أي كما أن المخصوص الذي للنصارى تطهير لهم فكذلك

الختان تطهير للمسلمين عن أبي العالية.

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ البقرة١٣٩

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في تلك المحاجة وذكروا وجوهاً. أحدها: أن ذلك كان قولهم أنهم أولى بالحق والنبوة لتقدم النبوة فيهم والمعنى: أتجادلوننا في أن الله اصطفى رسول من العرب لا منكم وتقولون: لو أنزل الله على أحد لأنزل عليكم، وترونكم أحق بالنبوة منا. وثانيها: قولهم: نحن أحق بالإيمان من العرب الذين عبدوا الأوثان. وثالثها: قولهم؛ ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارى﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ﴾ [البقرة: ١٣٥]، عن الحسن. ورابعها: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ ﴾ أي: أتحاجوننا في دين الله.

المسألة الثانية: هذه المحاجة كانت مع من؟ ذكروا فيه وجوهاً. أحدها: أنه خطاب لليهود والنصارى. وثانيها: أنه خطاب مع مشركي العرب حيث قالوا: ﴿لَوْلا أُنزِلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، والعرب كانوا مقرين بالخالق. وثالثها: أنه خطاب مع الكل، والقول الأول أليق بنظم الآية.

أما قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ ففيه وجهان. الأول:أنه أعلم بتدبير خلقه وبمن يصلح للرسالة وبمن لا يصلح لها، فلا تعترضوا على ربكم، فإن العبد ليس له أن يعترض على ربه، بل يجب عليه تفويض الأمر بالكلية له. الثاني: أنه لا نسبة لكم إلى الله تعالى إلا بالعبودية، وهذه النسبة مشتركة بيننا وبينكم، فلم ترجحون أنفسكم علينا، بل الترجيح من جانبنا لأنا مخلصون له في العبودية، ولستم كذلك، وهو المراد بقوله:﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ وهذا التأويل أقرب. أما قوله تعالى:﴿وَقَالُواْ لَنَا أَعْمَالَنَا وَلَكُمْ أَعْمَالَكُم﴾ فالمراد منه النصيحة في الدين كأنه تعالى قال لنبيه: قل لهم هذا القول على وجه الشفقة والنصيحة، أي لا يرجع

إلى من أفعالكم القبيحة ضرر حتى يكون المقصود من هذا القول دفع ذلك الضرر وإنما المراد نصحكم وإرشادكم إلى الأصلح، وبالجملة فالإنسان إنما يكون مقبول القول إذا كان خالياً عن الأغراض الدنيوية، فإذا كان لشيء من الأغراض لم ينجع قوله في القلب ألبتة فهذا هو المراد فيكون فيه من الردع والزجر ما يبعث على النظر وتحرك الطباع على الاستدلال وقبول الحق، وأما معنى الإخلاص فقد تقدم.

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٤٠

اعلم أن في الآية مسألتين:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ ﴾بالتاء على المخاطبة كأنه قال: أتحاجوننا أم تقولون، والباقون بالياء على أنه إخبار عن اليهود والنصارى فعلى الأول يحتمل أن تكون (أم) متصلة وتقديره: بأي الحجتين تتعلقون في أمرنا، أبالتوحيد فنحن موحدون، أم باتباع دين الأنبياء فنحن متبعون؟ وأن تكون منقطعة بمعنى: بل أتقولون والهمزة للإنكار أيضاً، وعلى الثاني تكون منقطعة لانقطاع معناه بمعنى الانقطاع إلى حجاج آخر غير الأول، كأنه قيل: أتقولون إن الأنبياء كانوا قبل نزول التوراة والإنجيل هوداً أو نصارى.

المسألة الثانية: إنما أنكر الله تعالى ذلك القول عليهم لوجوه. أحدها: لأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) ثبتت نبوته بسائر المعجزات، وقد أخبر عن كذبهم في ذلك فثبت لا محالة كذبهم فيه. وثانيها: شهادة التوراة والإنجيل على أن الأنبياء كانوا على التوحيد والحنيفية. وثالثها: أن التوراة والإنجيل أنزلا بعدهم. ورابعها:أنهم ادعوا ذلك من غير برهان فوبخهم الله تعالى على الكلام في معرض الاستفهام على سبيل الإنكار والغرض منه الزجر والتوبيخ وأن يقرر الله في نفوسهم أنهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين في ما يقولون.

أما قوله تعالى:﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ فمعناه أن الله أعلم وخبره أصدق وقد

أخبر في التوراة والإنجيل وفي القرآن على لسان محمد (صلى الله عليه وسلم) أنهم كانوا مسلمين مبرئين عن اليهودية والنصرانية. فإن قيل: إنما يقال هذا فيمن لا يعلم وهم علموه وكتموه فكيف يصح الكلام؟ قلنا: من قال: إنهم كانوا على ظن وتوهم فالكلام ظاهر ومن قال: علموا وجحدوا فمعناه أن منزلتكم منزلة المعترضين على ما يعلم أن الله أخبر به فلا ينفعه ذلك مع إقراره بأن الله أعلم.

أما قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شهادة عِندَهُ مِنَ الله﴾ ففيه ثلاثة أوجه. أحدها: أن في الآية تقديماً وتأخيراً والتقدير: ومن أظلم عند الله ممن كتم شهادة حصلت عنده كقولك:ومن أظلم من زيد من جملة الكاتمين للشهادة والمعنى. لو كان إبراهيم وبنوه هود أو نصارى، ثم إن الله كتم هذه الشهادة لم يكن أحد ممن يكتم شهادة أظلم منه لكن لما استحال ذلك مع عدله وتنزهه عن الكذب، علمنا أنه ليس الأمر كذلك. وثانيها: ومن أظلم منكم معاشر اليهود والنصارى إن كتمتم هذه الشهادة من الله فمن في قوله: ﴿مِنَ الله﴾ تتعلق بالكاتم على القول الأول وبالمكتوم منه على القول الثاني كأنه قال: ومن أظلم ممن عنده شهادة فلم يقمها عند الله بل كتمها وأخفاها. وثالثها: أن يكون: ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنَ الله﴾ صلة الشهادة والمعنى: ومن أظلم ممن كتم شهادة جاءته من عند الله فجحدها كقول الرجل لغيره عندي شهادة منك، أي شهادة سمعتها منك وشهادة جاءتني من جهتك ومن عندك.

أما قوله: ﴿وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو الكلام الجامع لكل وعيد، ومن تصور أنه تعالى عالم بسره وإعلانه ولا يخفى عليه خافية أنه من وراء مجازاته إن خيراً فخير وإن شراً فشر لا يمضي عليه طرفة عين إلاّ وهو حذر خائف ألا ترى أن أحدنا لو كان عليه رقيب من جهة سلطان يعد عليه الأنفاس لكان دائم الحذر والوجل مع أن ذلك الرقيب لا يعرف إلاّ الظاهر، فكيف بالرب الرقيب الذي يعلم السر وأخفى إذا هدد وأوعد بهذا الجنس من القول.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟

يَعْمَلُونَ ﴾البقرة ١٤١

اعلم أنه تعالى لما حاج اليهود في هؤلاء الأنبياء عقبه بهذه الآية لوجوه.أحدها: ليكون وعظاً لهم وزجراً حتى لا يتكلوا على فضل الآباء فكل واحد يؤخذ بعمله. وثانيها: أنه تعالى بين أنه متى لا يستنكر أن يكون فرضكم عين فرضهم لاختلاف المصالح لم يستنكر أن تختلف المصالح فينقلكم محمد (صلى الله عليه وسلم) من ملة إلى ملة أخرى. وثالثها: أنه تعالى لما ذكر حسن طريقة الأنبياء الذين ذكرهم في هذه الآيات بين أن الدليل لا يتم بذلك بل كل إنسان مسؤول عن عمله، ولا عذر له في ترك الحق بأن توهم أنه متمسك بطريقة من تقدم، لأنهم أصابوا أم أخطأوا لا ينفع هؤلاء ولا يضرهم لئلا يتوهم أن طريقة الدين التقليد، فإن قيل لم كررت الآية؟ قلنا فيه قولان، أحدهما: أنه عني بالآية الأولى إبراهيم ومن ذكر معه، والثانية أسلاف اليهود. قال الجبائي قال القاضي: هذا بعيد لأن أسلاف اليهود والنصارى لم يجر لهم ذكر مصرح وموضع الشبهة في هذا القول أن القوم لما قالوا في إبراهيم وبنيه إنهم كانوا هوداً فكأنهم قالوا: إنهم كانوا على مثل طريقة أسلافنا من اليهود فصار سلفهم في حكم المذكورين فجاز أن يقول:﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ويعينهم ولكن ذلك كالتعسف بل المذكور السابق هو إبراهيم وبنوه فقوله:﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ ﴾يجب أن يكون عائداً إليهم، والقول الثاني: أنه متى اختلفت الأوقات والأحوال والمواطن لم يكن التكرار عبثاً فكأنه تعالى قال: ما هذا إلاّ بشر فوصف هؤلاء الأنبياء فيما أنتم عليه من الدين لا يسوغ التقليد في هذا الجنس فعليكم بترك الكلام في تلك الأمة فلها ما كسبت وانظروا فيما دعاكم إليه محمد (صلى الله عليه وسلم)، فإن ذلك أنفع لكم وأعود عليكم ولا تسألون إلاّ عن عملكم.

ـ الطباطبائي:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾، لما بيّن تعالى أن الدين الحق الذي كان عليه أولاد إبراهيم من إسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده كان هو

الإسلام الذي كان عليه إبراهيم حنيفاً، استنتج من ذلك أن الإختلافات والإنشعابات التي يدعو إليها فرق المنتحلين من اليهود والنصارى، أمور إخترعتها هوساتهم، ولعبت بها أيديهم لأنّهم في شقاق، فتقطعوا بذلك طوائف وأحزاباً دينية، وصبغوا دين الله سبحانه، وهو دين التوحيد ودين الوحدة، بصبغة الأهواء والأغراض والمطامع، مع أن الدين واحد كما أن الإله المعبود بالدين واحد وهو دين إبراهيم، وبه فليتمسك المسلمون وليتركوا شقاق أهل الكتاب.

فإن من طبيعة هذه الحياة الأرضية الدنيوية التغير والتحول في عين الجرى والاستمرار كنفس الطبيعة التي هي كالمادة لها ويوجب ذلك أن تتغير الرسوم والآداب والشعائر القومية بين طوائف الملل وشعباتها، وربما يوجب ذلك تغييراً وانحرافاً في المراسم الدينية، وربما يوجب دخول ما ليس من الدين في الدين، أو خروج ما هو منه والاغراض والغايات الدنيوية ربما تحل محل الأغراض الدينية الإلهية (وهي بلية الدين)، وعند ذلك ينصبغ الدين بصبغة القومية فيدعو إلى هدف دون هدفه الأصلي ويؤدب الناس غير أدبه الحقيقي، فلا يلبث حتى يعود المنكر (وهو ما ليس من الدين) معروفاً يتعصب له الناس لموافقته هوساتهم وشهواتهم والمعروف منكراً ليس له حامٍ يحميه ولا واقٍ يقيه ويؤل الأمر إلى ما نشاهده اليوم من...

وبالجملة فقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾، إجمال تفصيل معناه وقالت اليهود كونوا هوداً تهتدوا، وقالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا، كل ذلك لتشعبهم وشقاقهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، جواب عن قولهم أي قل، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً فإنها الملة الواحدة التي كان عليها جميع أنبياؤكم، إبراهيم، فمن دونه، وما كان صاحب هذه الملة وهو إبراهيم من المشركين ولو كان في ملته هذه الانشعابات، وهي الضمائم التي ضمها إليها المبتدعون، من الاختلافات لكان مشركاً بذلك، فإن ما ليس من دين الله لا يدعو إلى الله سبحانه،

بل إلى غيره وهو الشرك، فهذا دين التوحيد الذي لا يشتمل على ما ليس من عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾، لما حكى ما يأمره به اليهود والنصارى من اتباع مذهبهم، ذكر ما هو عنده من الحق (والحق يقول) وهو الشهادة على الإيمان بالله والإيمان بما عند الأنبياء، من غير فرق بينهم، وهو الإسلام وخص الإيمان بالله بالذكر وقدمه وأخرجه من بين ما أنزل على الأنبياء لأن الإيمان الله فطري، لا يحتاج إلى بينة النبوة، ودليل الرسالة.

ثم ذكر سبحانه ما أنزل إلينا وهو القرآن أو المعارف القرآنية وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ثم ذكر ما أُوتي موسى وعيسى وخصهما بالذكر لأن المخاطبة مع اليهود والنصارى وهم يدعون إليهما فقط ثم ذكر ما أوتي النبيون من ربهم، ليشمل الشهادة جميع الأنبياء فيستقيم قوله بعد ذلك: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ ﴾.

واختلاف التعبير في الكلام، حيث عبر عما عندنا وعند إبراهيم وإسحاق ويعقوب بالإنزال وعما عند موسى وعيسى والنبيين بالإيتاء وهو الإعطاء، لعل الوجه فيه أن الأصل في التعبير هو الإيتاء، كما قال تعالى بعد ذكر إبراهيم، ومن بعده ومن قبله من الأنبياء في سورة الأنعام: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ ﴾الأنعام: ٨٩ ، لكن لفظ الإيتاء ليس بصريح في الوحي والإنزال كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾لقمان: ١٢ ، وقال: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾الجاثية: ١٦، ولما كان كل من اليهود والنصارى يعدون إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من أهل ملتهم، فاليهود من اليهود، والنصارى من النصارى، واعتقادهم أن الملة الحق من النصرانية، أو اليهودية، هي ما أوتيه موسى وعيسى، فلو كان قيل: وما أُوتي إبراهيم وإسماعيل لم يكن بصريح في كونهم بأشخاصهم صاحب ملة بالوحي والإنزال واحتمل أن يكون ما أُوتوه، هو الذي أوتيه موسى وعيسى (عليهما السلام) نسب إليهم بحكم التبعية كما نسب إيتائه إلى بني اسرائيل، فلذلك خص إبراهيم

ومن عطف عليه باستعمال لفظ الإنزال وأما النبيون قبل إبراهيم فليس لهم فيهم كلام حتى يوهم قوله: وما أُوتي النبيون شيئاً يجب دفعه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾، الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل والسبط كالقبيلة الجماعة يجتمعون على أب واحد، وقد كانوا اثنتي عشرة سبطاً أمماً وكل واحدة منهم تنتهي إلى واحد من أولاد يعقوب وكانوا إثنى عشر، فخلف كل واحد منهم أمة من الناس.

فإن كان المراد بالأسباط الأمم والأقوام فنسبة الإنزال إليهم لاشتمالهم على أنبياء من سبطهم، وإن كان المراد بالأسباط الأشخاص كانوا أنبياء أنزل إليهم الوحي وليسوا بإخوة يوسف لعدم كونهم أنبياء، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ﴾النساء: ١٦٣ .

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ﴾، الإتيان بلفظ المثل مع كون أصل المعنى، فإن آمنوا بما آمنتم به، لقطع عرق الخصام والجدال، فإنه لو قيل لهم أن آمنوا بما آمنا به أمكن أن يقولوا كما قالوا، بل نؤمن بما أنزل علينا ونكفر بما ورائه، لكن لو قيل لهم، إنا آمنا بما لا يشتمل إلاّ على الحق فآمنوا على الحق مثله، لم يجدوا طريقاً للمراء والمكابرة، فإن الذي بيدهم لا يشتمل على صفوة الحق.

قوله تعالى: ﴿فِي شِقَاقٍ﴾، الشقاق النفاق والمنازعة والمشاجرة والإفتراق.

قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وعد لرسول الله بالنصرة عليهم، وقد أنجز وعده وسيتم هذه النعمة للأُمة الإسلامية إذا شاء، واعلم: ان الآية معترضة بين الآيتين السابقة واللاحقة.

قوله تعالى:﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ .، الصبغة بناء نوع من الصبغ أي هذا الإيمان المذكور صبغة إلهية لنا، وهي أحسن الصبغ لا صبغة اليهودية والنصرانية بالتفرق في الدين، وعدم إقامته.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾، في موضع الحال، وهو كبيان العلة لقوله:

صبغة الله ومن أحسن.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ ﴾، إنكار، لمحاجة أهل الكتاب، المسلمين في الله سبحانه وقد بيّن وجه الإنكار، وكون محاجتهم لغواً وباطلاً، بقوله: ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾، وبيانه: أن محاجة كل تابعين في متبوعهما ومخاصمتهما فيه إنما تكون لأحد أمور ثلاثة: أما لاختصاص كل من التابعين بمتبوعٍ دون متبوع الآخر، فيريدان بالمحاجة كل تفضيل متبوعه وربه على الآخر، كالمحاجة بين وثني ومسلم، واما لأَنّ كل واحد منهما أو أحدهما يريد مزيد الاختصاص به، وإبطال نسبة رفيقه، أو قريبه اوما يشبه ذلك، بعد كون المتبوع واحداً، وأما لأَنَّ أحدهما ذا خصائص وخصال لا ينبغي أن ينتسب إلى هذا المتبوع وفعاله ذاك الفعال، وخصاله تلك الخصال لكونه موجباً، لهتكه أو سقوطه أو غير ذلك، فهذه علل المحاجة والمخاصمة بين كل تابعين، والمسلمون وأهل الكتاب انما يعبدون الهاً واحداً، وأعمال كل من الطائفتين لا تزاحم الأخرى شيئاً والمسلمون مخلصون في دينهم لله، فلا سبب يمكن أن يتشبث به أهل الكتاب في محاجتهم، ولذلك أنكر عليهم محاجتهم أولاً ثم نفى واحداً واحداً من أسبابها الثلاثة، ثانياً.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ إلى قوله: ﴿ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾، وهو قول كل من الفريقين، إن إبراهيم ومن ذكر بعده منهم، ولازم ذلك كونهم هوداً أو نصارى أو قولهم صريحاً أنهم كانوا هوداً أو نصارى، كما يفيده ظاهر قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران: ٦٥.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾، فإن الله اخبرنا واخبركم في الكتاب أن موسى وعيسى وكتابيهما بعد إبراهيم ومن ذكر معه.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، أي كتم ما تحمل شهادة أن الله أخبر بكون تشريع اليهودية أو النصرانية بعد إبراهيم ومن ذكر معه، فالشهادة المذكورة في الآية شهادة تحمل، أو المعنى كتم شهادة الله على

أَنّ هؤلاء قبل التوراة والإنجيل، فالشهادة شهادة أداء، المتعين هو المعنى الأول.

قوله تعالى:﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾، أي أن الغور في الأشخاص وأنهم ممن كانوا لا ينفع حالكم، ولا يضركم السكوت عن المحاجة والمجادلة فيهم، والواجب عليكم الاشتغال بما تسألون غداً عنه، وتكرار الآية مرتين لكونهم يفرطون في هذه المحاجة التى لا تنفع لحالهم شيئاً، وخصوصاً مع علمهم بأن إبراهيم كان قبل اليهودية والنصرانية، وإلاّ فالبحث عن حال الأنبياء، والرسل بما ينفع البحث فيه كمزايا رسالاتهم وفضائل نفوسهم الشريفة مما ندب إليه القرآن حيث يقص قصصهم ويأمر بالتدبر فيها.

في تفسير العيّاشي في قوله تعالى: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ الآية، عن الصادق (عليه السلام) قال إن الحنيفية في الإسلام.

وعن الباقر (عليه السلام) ما أبقت الحنيفية شيئاً، حتى أن منها قص الشارب وقلم الأظفار والختان.

وفي تفسير القمي، أنزل الله على إبراهيم الحنيفية، وهي الطهارة، وهي عشرة: خمسة في الرأس وخمسة في البدن، فأما التي في الرأس فأخذ الشارب وإعفاء اللحى وطم الشعر والسواك والخلال، وأما التي في البدن فأخذ الشعر من البدن والختان وقلم الأظفار والغسل من الجنابة، والطهور بالماء وهي الحنيفية الطاهرة التي جاء بها إبراهيم فلم تنسخ ولا تنسخ إلى يوم القيامة.

أقول: طم الشعر، جزه، وتوفيره وفي معنى الرواية أو ما يقرب منه احاديث كثيرة جداً روتها الفريقان في كتبهم.

وفي الكافي وتفسير العيّاشي عن الباقر (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية، قال إنما عنى بها علياً وفاطمة والحسن والحسين وجرت بعدهم في الأئمة الحديث.

أقول: ويستفاد ذلك من وقوع الخطاب في ذيل دعوة إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ الآية ولا ينافي ذلك توجيه الخطاب إلى عامة المسلمين وكونهم مكلفين

بذلك، فإن لهذه الخطابات عموماً وخصوصاً بحسب مراتب معناها على ما مرّ في الكلام على الإسلام والإيمان ومراتبهما.

وفي تفسير القمي عن أحدهما، وفي المعاني عن الصادق (عليه السلام): في قوله تعالى: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ ﴾ الآية، قال: الصبغة هي الإسلام.

أقول: وهو الظاهر من سياق الآيات.

وفي الكافي والمعاني عن الصادق (عليه السلام) قال (صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق).

أقول: وهو من باطن الآية على ما سنبين معناه ونبين أيضاً معنى الولاية ومعنى الميثاق إن شاء الله العزيز.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول:

الإجماع واضح وإن اختلفت العبارات، فإن مضمونها تقريباً واحد.

وقد استفاد كل مفسر من ألفاظ هذه الآيات المباركة ليسلّط الضوء على بعض القضايا، ومع هذا لم تأتِ هذه المضامين متعارضة بشكل جوهري بين المفسرين.

وقد تميّز في هذه الفقرة التفسيرية كل من: القرطبي والشيرازي والرازي والطباطبائي فجزاهم الله خير الجزاء.

الفهرس

سورة البقرة الآية ١٠٤ - ١١٠	**٥**
أدب الحديث مع النبي (ص) ومسألة النسخ في القرآن	
سورة البقرة الآية ١١١ - ١١٧	**١٠٧**
نزاع اليهود والنصارى حول موضوع الجنة ونسبة الولد لله تعالى عن ذلك	
سورة البقرة الآية ١١٨ - ١٢٣	**٢٠١**
عدم رضى اليهود والنصارى عن النبي (ص) ومسألة تلاوة الكتاب	
سورة البقرة الآية ١٢٤	**٢٤٧**
مسألة الإمامة الخاصة والعامة وموضوع العصمة	
سورة البقرة الآية ١٢٥ - ١٢٩	**٣٠٩**
مسألة بناء الكعبة ودعوة إبراهيم (ع) وإسماعيل للنبي (ص)	
سورة البقرة الآية ١٣٠- ١٣٤	**٤٠٥**
سفه الإعراض عن اتباع إبراهيم (ع) ووصيته ليعقوب ولأبنائهما	
سورة البقرة الآية ١٣٥- ١٤١	**٤٥١**
مسألة صبغة الله واتباع النبي (ص) وعدم الاعتماد على أعمال السلف	